الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي بعابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٦ / ٥٦٧٩٩

العدد ٢٤٤ — الثلاثاء ٣٠ من شعبان سنة ١٣٦٢ — ٣١ من أغسطس سنة ١٩٤٣ — السنة الخامسة

فهرس العـــــدد

مرحلة الفصل

الآن وقد مرت أربعة أعوام [illegible] الحاضرة ، نستطيع أن نقول إننا [illegible] هذا ما تدل عليه جميع الحوادث والتطورات . وقد نشهد هذه المرحلة الفاصلة في القريب العاجل ، وقد تكون مرحلة قصيرة لا تعدو بضعة أشهر ، وقد تطول قليلا إلى ما بعد الشتاء القادم ، وذلك وفقا لتطور الحوادث المنتظرة ، وميادينها المحتملة .

ولسنا نود أن نجعل هذا القول محل النبوءة والتكهن ؛ وإنما نريد فقط أن نستعرض منطق الحوادث الجارية ومقتضياتها لنصل إلى النتائج المحتملة . فسير الحوادث في إيطاليا ، وتطور المعارك في روسيا ، وازدياد أعباء ألمانيا الدفاعية ، وانعقاد مؤتمر كويبك عقب انتهاء حملة صقلية ، وما أذيع عن قراراته الأولى : هذه كلها تحمل على الاعتقاد بأننا سوف نشهد في القريب العاجل مرحلة الفصل والختام في الحرب الأوربية على الأقل .

وربما كان موقف إيطاليا الشاذ أول ما يستوقف النظر في سجلات الحوادث الجارية ؛ فقد كان المتوقع أن يكون انهيار الفاشستية الإيطالية ، وهي المسئولة عن دفع إيطاليا إلى خوض هذه الحرب الخطرة ، مقدمة لانفصالها عن المحور ، وسعيها إلى عقد هدنة مستقلة . وكان كل ما هنالك يعزز هذا الظن ، ولا سيما بعد أن سقطت صقلية في يد الحلفاء ، وأصبحت جيوشهم تقف على أبواب الأرض الإيطالية الأصلية ؛ ولكن مضى إلى اليوم أكثر من شهر منذ سقط موسوليني ونظامه الفاشستي دون أن تقدم الحكومة الإيطالية الجديدة على تحديد موقفها بصورة واضحة . ومن الواضح أن المارشال بادوليو يجد نفسه في مأزق صعب ، فالحلفاء يصرون على أن تسلم إيطاليا دون قيد ولا شرط ؛ ومن جهة أخرى ، فإن القوات الألمانية تحتل إيطاليا ، وإذا صحت الأنباء المحايدة ، فإن قوات ألمانية كبيرة تحتشد الآن في شمال إيطاليا ، وتقيم فيها خطوطا دفاعية قوية ؛ والظاهر أن الألمان يعتزمون أن يجعلوا من إيطاليا ذاتها مسرحا لحرب دفاعية تشغل الحلفاء وتبعدهم عن الأراضي

الألمانية ذاتها أطول وقت مستطاع . ولو جلا الألمان عن إيطاليا ، واحتلها الحلفاء بسرعة ، لاستطاعت أسرابهم الجوية أن تمخر في حدود ألمانيا (في التيرول والنمسا) ؛ ولكن القيادة الألمانية تتبع في الحرب الحاضرة نفس الخطة التي اتبعتها في الحرب الكبرى ، وهي أن تحرص على أن تكون ميادين المعارك بقدر المستطاع خارج الوطن الألماني ، ليسلم الوطن من العبث والتخريب .

وهكذا تجد حكومة بادوليو نفسها بين نارين ؛ وفي ذلك ما يفسر ترددها وحيرتها . ومن الواضح أن الشعب الإيطالي لم يعد راغباً في حرب جرت عليه كل هذه الكوارث ، خصوصاً بعد أن أضحى الوطن الإيطالي نفسه معرضاً لأشد الضربات الجوية ؛ ولكن الشعب الإيطالي لا يعرف أين يسير وكيف يسير ؛ بيد أن الذي لا ريب فيه هو أن هذه الحالة لا يمكن أن تطول ، خصوصاً إذا بدأ الحلفاء غزو الأرض الإيطالية ذاتها ، وهو ما يرجح وقوعه في القريب العاجل . ومن [illegible] الإيطالي سيعمد عندئذ إلى خوض معارك جديدة [illegible] الوطن الإيطالي في جدية ، ولا [illegible] الغالب أن إيطاليا ستبادر عندئذ إلى طلب الهدنة بصورة من الصور ، وإلا عرضت للانهيار المطلق والفوضى . وهنا يتعذر على الألمان أن يحاربوا بمفردهم في بلد لا يرغب في متابعة الحرب ، ولا بد لهم عندئذ من الانسحاب إلى حدودهم الأصلية .

هذا فيما يتعلق بإيطاليا التي تلوح نهايتها القريبة في الأفق . وأما من تطور الحوادث في الميدان الروسي ، فهي أيضاً تنذر بدخولها في مرحلة الحسم . ولقد اعتدنا في العامين الماضيين أن نشهد كل صيف هجوماً ألمانياً رائعاً في روسيا يكتسح أمامه كل شيء ، وينتهي باستيلاء الألمان على مساحات واسعة من الأراضي الروسية ؛ وأن نشهد الجيوش الروسية تقوم في كل شتاء بهجمات موفقة تسترد فيها بعض الأراضي والقواعد الهامة ، وتحسن مراكزها تحسناً كبيراً . وقد حقق الروس في الشتاء الماضي أعظم مجهوداتهم الحربية ، وكللت هجماتهم بأعظم نجاح ، فاستردوا ستالنجراد وقضوا فيها على نصف مليون جندي ألماني ، وأوقعوا بجيوش «الريخ» أعظم نكبة أصابتها في هذه الحرب ؛ واستردوا القوقاز ، وتوغلوا غرباً في الميدان الأوسط حتى خاركوف واستولوا على خاركوف ذاتها ، ولكن الألمان استردوها بهجوم قوي مضاد . ودخل الصيف الحالي ، ولم يبدأ الألمان هجومهم الصيفي قبل أوائل يوليه ، وكان هجوماً عنيفاً يشمل الجبهة الوسطى فيما بين أوريل وكورسك ، واستطاع الألمان أن يخترقوا الخطوط الروسية بادئ ذي بدء . ولكن سرعان ما تغير الموقف ، وانقلب الروس من الدفاع إلى الهجوم ، فكان هذا أول هجوم صيفي يقوم به الروس . وشمل الهجوم الروسي منطقة تمتد [illegible] من أوريل إلى بيلجورود ، وهما من القواعد الهامة التي يرتكز إليها خط الدفاع الألماني في الوسط ؛ وبعد معارك هائلة استطاع الروس انتزاع هاتين القاعدتين [illegible] أسبوعان على ذلك حتى استولى الروس على خاركوف أعظم قواعدهم في أكرانيا للمرة الثانية خلال [illegible] والاستيلاء على تلك القاعدة الهامة التي هي أعظم مركز للمواصلات في أكرانيا بين الشمال والجنوب والشرق والغرب ، ضربة شديدة للألمان تعرض خطوطهم في شرقي أكرانيا لخطر دائم ، وتفسح مجالاً لاندفاع الروسي نحو الغرب والجنوب . وقد لا تمضي أسابيع أخرى حتى نشهد تطورات هامة أخرى في الميدان الروسي .

وإذا كان هجوم الروس الصيفي قد أسفر عن هذه النتائج الخطيرة ، فإن لنا أن نتوقع ، متى أقبل الشتاء ، أن يضاعف الروس جهودهم لرد الغزاة إلى الوراء . والمعروف أن قسوة الشتاء تضفي على خطة الروس الاستراتيجية مزايا جديدة . ومن المشكوك فيه أن يستطيع الجيش الألماني أن يحتفظ بخطوطه الممتدة من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب ، ولا بد له تفادياً من ضغط الروس الخطر أن يلجأ إلى تقصير خطوطه ، خصوصاً إذا نجح الهجوم الروسي في الشمال في اتجاه سمولنسك ؛ وليس بعيداً أن يضطر الألمان

إلى القيام بمثل هذه الحركة قبل مقدم الشتاء ، فيتركوا شرق أوكرانيا كله ، ويرتدوا إلى خطوط أقصر يستطيعوا تركيز قواتهم لملاقاة الروس .

وعلى أي حال ، فإنه يلوح من تطور الحوادث أن الميدان الروسي سوف يشهد في الشتاء القادم أعظم المعارك الفاصلة بين الروس والألمان . وإذا تركنا مجال التنبؤ جانباً ، ففي وسعنا أن نقول إن الروس يخوضون هذه المعارك في أحسن الظروف التي أتيحت لهم منذ بداية الحرب ، وأن الألمان سوف يخوضونها وقد أنهكتهم ضربات الروس المتوالية ، وأثرت في قواهم المعنوية أسوأ الأثر .

— ٢ —

ويجب ألا ننسى بعد ذلك كله ما يمكن أن يسفر عنه مؤتمر كويبك من القرارات والتطورات الخطيرة . والمفهوم أن عقد هذا المؤتمر هو في ذاته تدبير لأن الحرب توشك أن تدخل في مرحلتها الحاسمة ، وأن زعيمي الديمقراطية الغربية مستر تشرشل [illegible] قد اجتمعا في كويبك مع أقطاب القيادة العسكرية [illegible] ووضع الخطط الأخيرة لإنهاء الحرب . ومع أن العالم لم [illegible] بالتفصيل [illegible] حتى كتابة هذه السطور شيء من قرارات هذا المؤتمر العتيد ، فإنه يكاد يكون من المجمع عليه أن مسألة فتح الجبهة الأوربية الثانية هي في مقدمة ما عني به . والمقصود بالجبهة الثانية في هذه المرة ، هو تنظيم الجيوش المتحالفة لهجوم قوي في جهة أو أكثر في غرب أوربا يشغل قوات «الريخ» بصورة مباشرة ، ويرغم ألمانيا على أن تنقل شطراً كبيراً من قواتها من الميدان الروسي إلى الميدان أو الميادين الجديدة ؛ وبذلك يخف العبء الفادح الذي تضطلع به الجيوش الروسية وحدها في الميدان الشرقي منذ أكثر من عامين ، وترغم ألمانيا بذلك على أن تخوض القتال المباشر في أكثر من جبهة رئيسية ، وهو ما كانت تخشاه القيادة الألمانية دائماً . والظاهر أن المرشال ستالين يلح في وجوب فتح هذا الميدان بصورة عاجلة ، لينفسح المجال أمام الجيوش الروسية لإنزال ضرباتها الأخيرة الحاسمة بجيوش «الريخ» في الميدان الشرقي ؛ بينما يضرب الحلفاء مؤخرة ألمانيا من الغرب . ولم تقنع القيادة الروسية فيما يظهر بما تم من فتح الحلفاء لجبهة ثانية في أوربا الجنوبية ، أعني بما وقع من افتتاح صقلية وما قد يليه من المضي في غزو إيطاليا أو غزو البلقان ، لأن ذلك لا يمكن أن يشغل قوى الريخ إلا بصورة ثانوية ، لبعد هذه الميادين عن الوطن الألماني . ولم يخف مستر تشرشل والرئيس روزفلت خطورة هذه الخطوة الناجعة ، فكلاهما يشير دون تحفظ إلى المعارك الهائلة التي لا بد للحلفاء من خوضها في أوربا قبل إحراز النصر المنشود . على أنه يبدو أن فتح الجبهة الغربية الثانية أصبح ضرورة لا مفر من تحقيقها في القريب العاجل حرصاً على إرضاء القيادة الروسية ، وتبديد كل شكوك أو فتور يجري بين روسيا والدول المتحالفة ، وتعاونها في سحق العدو المشترك .

[illegible] من مؤتمر كويبك بتنسيق الخطط العسكرية [illegible] أيضاً مسألة الحرب ضد اليابان [illegible] في ميدان المحيط الهادي . وهذه مسألة تهم أمريكا بالذات ؛ فالنضال ضد اليابان هو أخص ما تعنى به أمريكا في هذه الحرب ؛ وهي قد بذلت حتى اليوم أعظم جهودها الحربية في ميادين تهم بريطانيا العظمى والقارة الأوربية قبل كل شيء . ويرى فريق كبير من الشعب الأمريكي أنه لا بد من أن تعمل الدول المتحالفة على هزيمة اليابان في نفس الوقت الذي تعمل فيه على هزيمة المحور في أوربا ، وأنه ليس من الضروري أن تبقى الحرب في المحيط الهادي على خمودها حتى يفرغ الحلفاء من مهمتهم في أوربا .

ومن المسلم به أيضاً أن مؤتمر كويبك قد درس النتائج التي يمكن أن تترتب على انتهاء الحرب في أوربا في المستقبل القريب ، والشروط التي يمكن أن تخرج بها إيطاليا هدنة منفصلة ، وماذا يجب أن تعامل به ألمانيا في حالة إحراز النصر ، وماذا يمكن أن تكون عليه خريطة أوربا المستقبلة ، وغير ذلك من المسائل الخطيرة التي تتعلق بتنظيم السلم في

المستقبل. والظاهر أنه سيعقب مباحثات كويبشف مباحثات أخرى مع روسيا لتنسيق جميع الشئون والخطط المتعلقة بمتابعة الحرب، وتنظيم المعترك إبانها.

والخلاصة، أنه يبدو من تطور الحوادث والظروف أن الحرب تدخل بعد أربعة أعوام من نشوبها في مرحلتها الأخيرة والحاسمة، وهي مرحلة قد يطول أمدها فيما نعتقد؛ غير أنه يخشى أن تكون أخطر المراحل وأعنفها، فإن جيوش «الريخ» ما زالت قوية وافرة، وما زالت ألمانيا تتمتع بميزات عسكرية واستراتيجية كثيرة؛ ومن المنتظر أن يبدي الجيش الألماني أعنف مقاومة في كل ساحة يلتقي فيها بخصومه. وقد قال هتلر في خطبه أكثر من مرة، إن الكلمة الفاصلة في هذه الحرب سوف تقال في أوربا، ولعلها اليوم كذلك. واعتقادنا أنها سوف تقال في القريب العاجل، وقد يكون ذلك في الميدان الروسي، وقد يكون في الميدان الغربي الجديد، أو فيهما معاً؛ هذا إذا سارت الأمور في مجراها الظاهر [illegible] «الريخ» أن يحرص حتى [illegible] واستطاعت الجبهة الألمانية الداخلية أن تحتفظ بتماسكها؛ على أنه ليس بعيداً أن تقع في داخل ألمانيا مفاجآت ليست في حسبان أحد، وعندئذ تنتهي الحرب الأوربية فجأة، وأسرع مما يظن.

محمد عبد الله عنان



كفاح المـــوت

ترجمة الدكتور أحمد زكي بك

فقر الدم الخبيث

منطق يقول لا، وطبيب يقول نعم

وهل الثالث: طبيب شاب أمريكي اسمه «مينوت»، من آل «مينوت»، وهي أسرة في الطب عريقة، [illegible] فداء عن فقر الدم الخبيث.

أدرك «مينوت» [illegible] الدواء، [illegible] في الدواء، [illegible] فقر الدم الخبيث [illegible].

[illegible]

ويرى [illegible] في المرضى [illegible]

وانتهى [illegible] «الدكتور «رينت»»، [illegible] فقر الدم الخبيث [illegible] كرات دم حمراء قاصرة [illegible].

واشتغل مع الدكتور «ول»، فهذا الاثنان [illegible] من أجسام [illegible] مريضاً، [illegible] ولكنها [illegible] الأولى، وماتوا جميعاً.

وهم «مينوت» و«ول» يعنون الدم من رجال أصحاء، إلى [illegible] المرضى، [illegible] هؤلاء المرضى، ولكن [illegible] أيضاً، وماتوا جميعاً.

حزن «مينوت» لهؤلاء حزناً كبيراً، وحزن طبيبه، ولكنه لم يرفع [illegible] أبداً.

والآن اقرأ:

ثم رقّوه في مدرسة الطب بجامعة هرفرد، وقلدوه إدارة مصلحة طبية في مستشفى هنتنجتن Collis Huntington، وفيها كان يعنى بمرضى السرطان في مرضاه،

وفيما كانت تُدرس تلك الأمراض التي تنشأ من خلل في صناعة الدم بالأجسام، كمرض اللوكيميا أو مرض الدم الأبيض، وهو مرض تبين بتميّز زيادة في كُريّات الدم البيضاء، وإلى جانب عدد من العاملين كان يعمل طبيباً مساعداً في مستشفى «بتر بنت برجهام» Peter Bent Brigham، وخبيراً بأمراض الدم بمستشفاه القديم، المستشفى العام بماساشوست. وبين كل تلك الأعمال استطاع «مينوت» أن يجد ساعات لعبادته الخاصة. وفي كل تلك الأعمال، وبينا هو يُجري أعماله في السرطان، رأى كثيراً من فقر الدم الخبيث. وأخذ صباحه ومساءه يفكر في سر الخلية الشريرة وسر نمائها، ويحاول أن يفسر كيف أن بعض الخلايا ببعض الناس تقف دون النمو الكامل، وتظل في مثل فقر الدم الخبيث، قاصرة تؤذي صاحبها بالخطر، على ما رأى الدكتور «ويت».

وفي عام ١٩٢١ فحص «مينوت» [illegible] ه، ويخص رجليه تنوء من حمل [illegible] طويل القامة رقيق الجسم، وصار يتستر [illegible] ولكنه بدا بعد إجازته أرق جسماً. ورأى نفسه قبيل العصر يشتري الموز على غير عادة، ويأكل الموز، ثم يأكل كالمسعور، فلم تزده إلا أكلاً وزرداً. ولم يستطع أن يتوقف في عمله، حتى اليوم الواحد لم يسترحه. وآلمته ظهره، ودام عطشه، واستمر ضعفه، فلم يجد بُدّاً من دخول معمله الصغير يستوضح حال نفسه الآن ما كانت. ودخله وحده ذات مساء، وأغلق الباب وراءه. وما هي إلا دقائق حتى كان واقفاً إلى منضدة عليها مصباح ذو لهب. وكانت في يده أنبوبة اختبار بها سائل، فوضع الأنبوبة في اللهب حتى سخن السائل وغلا. وأخذ ينظر إلى هذا السائل في إمعان، ولونه ينقلب من الأزرق إلى الأصفر، إلى اللون الأحمر المشئوم. قال مينوت لنفسه: «نعم. نعم. إنه البول السكري. وليس في الأبوال بول يحتوي من السكر أكثر مما احتواه بولي هذا».

ولم يكن له من العمر عندئذ غير أربعة وثلاثين عاماً. وتلك سنٌّ باكرة كان لا يمس السكرُ صاحبها حتى يترحّم عليه الناس. وكان «مينوت» له زوجة وله أطفال. وأسلم نفسه لأحد الأطباء الخبراء في داء البول السكري، فوصف له تدبير الغذاء المعروف لمرض السكر، وهو إلى تدبير إجاعة أقرب منه إلى تدبير تغذية. فلزم أمر طبيبه في كل دقائقه لزوماً يُضحك المتأمل إذا هو نسي أن «مينوت» إنما كان يدفع بذلك عن حياته. كان «مينوت» يزن بالميزان كل لقمة، وكل نُتافة من الطعام تنزل إلى معدته. وكان يُدعى إلى العشاء، تخرج به، فلا يقبل الدعوة إلا أن يكون له بالداعي ثقة لا تحرج منها أن يحمل ميزانه الصغير إلى داره ليقدّر به كل ما يُعطاه [illegible] من طعام.

وعصبه خرج كل يوم، وكل ساعة، وهو صابر، [illegible] داعي الشهوة فقد أصاب منه داعي الموت [illegible] صار نصف رجل. ومع هذا لم [illegible] كانت إرادته الصارمة تمسك [illegible] وحفظ هذا القوت المقدّر الموزون على قمة روحه شخصيتها فظلت تتقد. وعرف «مينوت» من هذا قيمة الطعام بحذره الطرب، نوعاً ومقداراً، وفقاً لحاجته، فتشيع الطعام وتدبيره، وعقلاً، فنشب فيه الولع بكل داء.

* * *

وكان أن اكتشف «بانتنج» أنسولينه، فنجا به «مينوت» في الناجين. وعاد به إلى قوته في سرعة مدهشة كأنما لعبت به عصا ساحر. فهكذا كان يعود مرضى السكر بالأنسولين.

وزاد إيمانه بالطعام وتدبيره، وزاد تحمسه له، فأدى به هذا الإيمان وهذا التحمس لا شك إلى حيث نقع على اكتشافه الغريب الذي ظل ينتظره على أفق الزمان وهو لا يدري عما ينتظره شيئاً.

وفي عام ١٩٣٢ وجد «مينوت» حيناً ، يحيا الحياة بالأمل في قوة كجهده الأول بها ، وعلى القرب منه في حصول الزمان اكتشافه المستقبل البديع . وليس بقلبه خطرة بأنه منه قريب . كان اكتشافه ينتظره عند ركن في سبيل حياته ، فإذا لم يره ، وكان قد قدر له ألا يراه إلا لحظة إذا هو بلغ تلك الزاوية من الطريق .

كان «مينوت» يهتم بالذي يأكل مرضاه . بدأ اهتمامه بذلك من ذلك العام القديم عام ١٩٢٦ .

كان يسأل كل مرضاه ، من فقراء الدم ومن غير فقرائه ، ماذا يأكلون وكيف يأكلون . وكان بالمستشفى صبية صغار يرمون الفكاهة حيناً وحيناً . فكثرت نوادرهم على مرضهم يتناقلون النكتة همساً : «إن الدكتور اكتشف أن السيدة الحجور فلانة لم تأكل السبانخ قط حتى بلغت العاشرة من عمرها» . ثم هم يضحكون كثيراً .

ولم يلبث «مينوت» أن [illegible] أنه على وشك أن يكتشف أمراً [illegible] مرضاه . فقد وجد الكثير منهم لا [illegible] الناس . وجدهم لا يأكلون كل شيء ، يتقززون من أكثر الأشياء ، ويتخيرون الطعام تخيراً غريباً ، ثم هم لا يتعاصمون في شهيتهم . وطفق يسأل مرضاه أسئلة لا يتسع وقت الطبيب ولا صبره لتوالها . ولم يرض الجواب منهم إلا مفصلاً . فإن قالوا إنهم يأكلون اللحم كل يوم ، سألهم هل هم حقاً يأكلونه ، وأي نوع يأكلون ، وكم يأكلون منه ؟ وعندئذ وجد الكثير منهم لا يأكلونه حقاً لأنهم لا يشتهونه ، وأنه إنما يظهر على المائدة ولكنهم لا يقربونه . ووجد بعضهم يشتهي الزبد والدهن اشتهاءً غارقاً .

وتهامس الصبية الصغار من المرضى ، وأكفهم على أفواههم : «إن الدكتور اكتشف أن الرجفة فلانة تأكل في كل وجبة قرصين فأكثر من الزبدة» ، ثم هم يتضاحكون .

هكذا تابع «مينوت» سؤال مرضاه ، وهم بين ضيق السؤال وضيق المرض آخذون سبيلهم إلى الموت المحتوم ، بوجوه تزداد كل يوم تهبطاً ، وجلود تزداد كل يوم تشمشاً ، ومنهم من أصابه الشلل قبل أن يطويه الفناء . كل هذا وصاحبنا الطبيب يقترب رويداً رويداً من تصور صورة الطعام يراه أوفق وأجدى بهؤلاء المرضى .

ثم بدأ تخليق صورة هذا الطعام النافع المزعوم من لا شيء ، وانتهى من تخليقها بمنطق كمنطق من يقول : كلمات وكلمات تساوي حصة أخيرة . أما اللحم الذي في هذا الطعام فلحم يضحك منه حتى هؤلاء الصبية المتهامسون المتضاحكون من صغار المرضى .

وجد «مينوت» أن فقر الدم الخبيث إنما يكثر في الولايات الشمالية من الولايات المتحدة .

وأخذ «مينوت» يقول لنفسه : إن الولايات الشمالية [illegible] الولايات [illegible] إنتاج الألبان ومشتقات الألبان .

[illegible] يتنتج من هذا ؟! إن كثيراً من [illegible] يأكل أشياء كثيرة غير الزبدة [illegible] . ولا شك أن ملايين من الناس تأكل الزبدة والقشطة ، وليس بها مرض واحد خفيف من أعراض فقر الدم الخبيث .

وتحدث «مينوت» نفسه : «وإذن فلنعمل طعاماً به قليل من الزبد ، قليل من الدهن ، يكون ... ولكن تمهل» ، وتعرض له فكرة أخرى : «إن فقر الدم الخبيث يشبه مرض البلجرة كثيراً — فم موجع ، وبعض مرتبك ، وأعصاب مختلة» .

وذكر أن الطبيب جلدبرجر Goldberger أرجع سبب البلجرة إلى أن مرضاها لا يأكلون الكفاية من اللحم ، لا يأكلون الكفاية من الزلاليات ، من البروتينات .

وذكر أيضاً أن الأطباء تصف أكل الكبد لمرضى داء القلاع ، وتقول على ألسنتهم قولاً عاماً : إن الكبد تفيد فيه . ثم أليس في داء القلاع شيء من فقر الدم ؟

على هذا الأسلوب جرى تفكير «ميونت»، ووجهه المنطق يحسس طريقه. وهو منطق لو حضر به في امتحان عند أستاذ منطق لأعطاه عليه صفراً: فهل البلاجرة حقاً أشبه بفقر الدم الخبيث هذا الشبه الذي زعم؟ ثم أليس شفاء البلاجرة في أكل اللحم واللبن والبيضات؟ ثم ألم يُطعم هو مرضاه اللحوم والزلاليات، ويُطعمهم منها الكثير، فلم يعصمهم ذلك من الموت؟

ويقرأ في كتاب ضخم عنوانه «أحدث المعارف في التغذية»، فيجيء على ذكر فضائل خاصة بالزلاليات في الكبد. ويقرأ أن الكبد تزيد في سرعة النمو في صغار من بيض الفئران. ويقرأ أن أكباد هذه الفئران لما أكلتها خنازير غينية Guinea pigs، وبها داءُ الحفر Scurvy، زاد مقدار الدم الأحمر — الهيموجلوبين — في هذه الخنازير.

ولكن حتى هذا، ما دخله بالهيموجلوبين؟ [illegible] الدم الخبيث ليس نقصاً في الهيموجلوبين [illegible] وتذكّر «ميونت» صاحبه [illegible] الدكتور «رت» يصيح في وجهه: «إن نخاع العظام هو مكان الداء، إن كرات الدم التي يصنعها النخاع صغيرة تعجز في النمو من بلوغ حجمها الطبيعي فتظل قاصرة...».

ويفكر «ميونت» في هذا النمو... ويفكر في الكبد.

ويقرأ في ذلك الكتاب الضخم فتمر به كلمة الكبد مراراً وتكراراً. ولكن ما العلاقة بين عجز النخاع عن صنع كرات دموية حمراء بالغة وبين هذه الكبد التي ساعدت على نمو الفئران البيض؟ ثم هو يقرأ شيئاً آخر عن أطفال الأساد، عن أشبالها:

في حدائق الحيوانات كانوا يربّون الأشبال على اللحم الأحمر، فيصيبها الكساح، ثم تموت.

ويفكر «ميونت» في هذا الكساح. إنه عظام مريضة. ثم يأخذ يقرأ في الكتاب:

«ولكن رجال هذه الحدائق عمدوا إلى هذه الأشبال فغذّوها بالكبد والجبن والعظام... فكان أن نمت واشتدّت وصارت آساداً يخشى الأساد».

هذه هي الكبد تعود ويعود ذكرها: تضعف العظام والطعام بلا كبد، ثم تشتد العظام والطعام به الكبد. وفقر الدم الخبيث يُعزى إلى خلل بنخاع العظام. إذن...

إنها فكرة بعيدة جداً، ومع هذا أخذت تختمر في رأس «ميونت» في كل مكان وكل زمان، وهو غاد إلى عمله، وهو رائح منه، وهو عند أسرّة المرضى يرقب شفاءهم، وهو عند أسرّتهم في الليل يحضر احتضارهم، وفي الصباح وهو يحلق ذقنه.

لم تكن تلك الفكرة وليدة بحث منظم. فإن أحداً لم يُعط «ميونت» عشرة مليون دولار ليؤسس بهما معهداً يكتشف فيه علاجاً لفقر الدم الخبيث، أو يكشف فيه عن فضائل أكل الأكباد. إنه اهتدى إلى ما اهتدى إليه في عيادته الخاصة، وليست عيادة المرضى بالمكان [illegible] يجرى فيه على الأسلوب العلمي [illegible] مبهمة مشوشة كالضباب، فكرة ظلت تطفو وتنطفئ في لجة عقله مع صنوف من أفكار أخرى، وعديد من مشاغل أخرى.

وإليك تجربة في الفن أخرى أجراها الدكتور وبل Whipple، والدكتور هوبر Hooper، والدكتور روبنشيت. وهي تجربة من شأنها تخذيل «ميونت» فيما هو بصدده أكثر من تشجيعه. جاء هؤلاء الثلاثة الأطباء بكلاب، ثم نزفوا دماءها نزفاً شديداً حتى ضعفت وزهقت. ثم أطعموا هذه الكلاب أكباداً، فعاد إليها الدم كما كان غنياً كثيفاً.

إن هذا الذي أحدثه الأطباء الثلاثة في الكلاب فقر في الدم يقيناً. ولكنه ليس بالفقر الخبيث، ليس بالفقر الأساسي الأولي، ولكنه الفقر الثانوي الذي يطاوع علة أخرى، ويتبع علة أخرى خارجية عنه، ليس منها وليست منه. وفقر الدم الثانوي لا شأن له مطلقاً بفقر الدم

من مذكرات جحا :

جحا و « البطل الصامت »

للأديب الكبير صاحب التوقيع

[والتبعة على صاحب الوثيقة الذى زعم أنها بخط يد الأديب الكبير جحا نفسه ...]

لو كان الإنسان لا يحمل إلا هموم نفسه ، ولا يعانى إلا المشقات التى تعترض سبيله فى حياته ، ولا يتحمل بعد ذلك أحمالا يلقيها الناس على كاهله ، ولا يتكلف أن يقاسى عناء المتاعب التى تعترض سبيل غيره من خلق الله ؛ لو كان الإنسان كذلك لكان سعيداً ، وحسبه من السعادة أن يعلم أنه إنما يشقى ويتعب ويكد فيما هو مسئول عنه ، فإذا سددت إليه الدهر ضرباته تلقاها صابراً ، لأنه يعرف أن تلك الضربات التى تصبها الحوادث على أم رأسه صباً ، إنما هى جزاء لما قدم من أعمال [illegible] كان يجب عليه ألا يفرط فيه . [illegible] يحمل كل امرئ نتائج ما اقترف فى حياته من الخطايا والآثام ؛ فإن ذلك يعادل ما يجنيه من ثمار ما أحسن فيه وما وفق فى القيام به . من حق كل زارع أن يحصد ما بذره فى حياته ، سواء أكان ذلك رزقاً طيباً أم شوكاً مؤلم الوخز .

لو كان الأمر كذلك لكان الإنسان سعيداً ، ولكانت الحياة معه عادلة على الأقل ؛ ولقد صدق الشاعر إذ قال :

وإن امرأ أمسى وأصبح سالماً
من الناس إلا ما جنى لسعيد

ولكنى كلما تلفت حولى إلى ما مضى من أيامى لم أجد إلا أحمالا حملتها لم يكن لى فى حملها وزر ، وضماناً تجشمتها لم يكن من العدل أن أتجشمها ، فقد كانت كلها أحمالا أُلقيت على كاهلى إلقاء ممن كان من العدل أن يستقلوا بها دونى ؛ وقد كان كل ذنبى أن هؤلاء لا يستطيعون حمل أثقالهم ، وأنى كنت أستطيع أن أساعدهم بتحمل عبئها عنهم ، فكانت نتيجة ذلك أنى قضيت عمرى كله أبرز [illegible] الأعباء والأثقال التى يلقيها الناس على عاتقى ، لا [illegible] من [illegible] إلا ليلقى على آخر أثقل منه ؛ على حين أن كلا من الآخرين [illegible] خفيف الكاهل فارغ [illegible] أن ألقى على كتفى حمله الوحيد [illegible] سائر حياته فى راحة ، مدخراً [illegible] سلامته .

من أجل هذا شبهت نفسى بصديقى العزيز « البطل الصامت » الذى يقضى كل حياته يحمل أحمالا ليس له فى حملها مصلحة ، ويقطع عمره كله فى عمل متصل لا يصيب

الخبيث ، ولا علاقة به ، ولا نسب بينه وبينه . وإن كان فى مقدور الطبيب أن يصيب الكلاب بالفقر الثانوى ، فليس فى مقدوره أن يصيبها بالفقر الخبيث . وهذه حقائق يعرفها الطبيب الناشئ .

والدكتور « ويبل » نفسه لم يقل إن الكبد تفيد فى فقر الدم الخبيث شيئاً . وليس فى التجربة ذاتها شىء يحمل على إفراد الكبد بميزة أو فضل . فقد قال « ويبل » إن لحم القلب من الأبقار ، وكذلك عضلها ، يشفيان ما أصاب الكلاب فى دمائها من فقر . أعنى أن اللحم والكبد سيان فيما يصنعان .

ولقد علم « مينوت » أن لحوم أبقار الدنيا كلها ، لو اجتمعت ، ما أفادت مرضى الفقر الخبيث فى جوهر دائهم شيئاً . لقد أكلوا هذه اللحوم فأتوا بطونها . إنها تنفع فى فقر الدم الثانوى كالذى كان بتلك الكلاب كما تنفع الأكباد تماماً . واللحوم لا تنفع الفقر الخبيث ، وكذلك لا بد أن تكون الأكباد ، فلنجرب الأكباد فى مرضى بنى الإنسان .

المنطق يقول لا ، ولكن منطق « مينوت » يقول نعم .

وإذن أخذ يطعم الأكباد مرضاه من بنى الإنسان .

أحمد زكى

منه خيرا ، على حين تذهب ثمرة عنائه للآخرين . ذلك «البطل الصامت» هو الذي يسميه الناس «حمارى» ، ويأبى لى أدبى أن أدعوه بذلك الاسم الذي اعتاد الناس أن يسبوا به من يريدون إظهار الازدراء له لغباوته وهوان قدره ؛ ولقد أخذت نفسي بأن أسميه دائما «البطل الصامت» حتى لا أوذى صديقا مثله في كرامته . والناس يعجبون من ذلك ويضحكون منه سخرية ، ويحسبون أنى أتخذ تلك التسمية لكى أسوق لهم بها فكاهة — يا قوم ! إن «البطل الصامت» عندى أكرم من كثير من هؤلاء الذين يحسدونه أحلامهم ، ولا يتورعون مع ذلك عن إلحاق الأذى به بالضرب والوخز والشتم ، وهو صامت يبذل الجهد صابرا قويا ، حتى إذا ما نهدم وخارت قواه واعترى العلل قيا على نفسه وتحامل وكد ما بقى من قواه ، ومضى ثابتا على خطه حتى يخر صريعا ويلفظ آخر أنفاسه بعد آخر حمل يقطع قلبه .

لا ينفك جيرانى وأصحابى وأهلى يقصدون [illegible] من أقصى أركان «ناموش» وأ[illegible] الصباح والمساء ، وجوف الليل ، لكى [illegible] على كتفى ، فإن لم تكن أحمالا [illegible] الدنيا في عينى . ولا أذكر أن واحداً منهم كلف نفسه مشقة الطريق إلى دارى لكى يؤدى دينا لى عليه ، أو لكى يسدى إلىّ يدا من معروف أو إحسان . ولا أقصد بهذا أنى أحب أن يسدى أحد منهم إلىّ معروفا ، فأنا بحمد الله غنى عن مثل هذا الجميل ، وكل ما أرجوه أن أتخلص من عطاياهم وأسلم منهم رأسى ورقبتى ، ولكنى أشير إلى هذه الكراهة لما يختلج في نفسي من الهم حتى أنفس عنها ببعض ما تجده .

والأدهى من ذلك أنى إذا كان لى دين على أحد من الناس وذهبت إليه لأطلب الوفاء به ، ولم أكلفه عناء السير إلى دارى ، لم أجده يوما في داره ؛ فإذا عثرت عليه في مكان غير داره ووقعت عينه في عينى لم ير شيئا منى ، وإن أطلت الوقوف أمامه [illegible] منى !

ذهبت منذ أيام إلى الشيخ الجليل [illegible] الدين ، وكانت لى عنده أمانة من مال ، أقرضته إياها في أيام محنته واحتياجه ؛ فلما عادت إليه الدنيا وأقبلت عليه الأرزاق قلت لنفسي إن هذه فرصة لى ، ولا بأس عليه إذا استعدت منه الأمانة ، فأنا أولى بها اليوم ، بل لقد كنت أولى بها عندما أودعتها عنده ؛ فلما ذهبت أبحث عنه عثرت عليه في حلقة من الناس يلقى عليهم درسا — لم أعرف ما هو — فقد كان يبدئ فيه ويعيد ، ويمطى ألفاظاً بعد ألفاظ ، ويهز لحيته ليفسر المعنى بهزاتها ، ويأبى العى أن يطلق ، مع أن الشيخ كان عنيفاً في حركته ، وكان يزأر أحيانا زأرة عنيفة تشبه زمجرة الأسد .

ولما دخلت المسجد وقفت أمامه طويلا فنظر إلىّ نظرة قصيرة ، ثم أسرع فرد بصره إلى الحلقة كأنه لم يلحظ وجودى ، وزاد عنفاً في زأرته وهز لحيته ، حتى مضت [illegible] ساعة ، وجاءت طوائف من السامعين وأقبلت بعدها طوائف ، وهم جميعاً يقصدون البركة بالسماع ولا يعنيهم أن يفهموا مما يقول الشيخ شيئاً .

[illegible] الانتظار ضقت بسماع ألفاظه ، وذكرت [illegible] منه بطلب أمانتى ، ولم أستفد من [illegible] قرية شقة ولعنة من الهم ، ورأيت هذا من سفها وإسرافا ، فإن ساعة أقضيها في ضوء الشمس أجدى علىّ وأشرح لصدرى ، وأعظم فائدة لحسى من هذه الوقفة المملة في حلقة درس الشيخ ؛ وثار غضبى فصحت به :

«يا سيدى الشيخ !» .

فنظر إلىّ مغضبا كأنه لا يعرفنى ، فزاد غضبى ، وثار الدم في رأسى فقلت له :

— أما تعرفنى ؟ إنى أنتظر فراغك منذ ساعات .

فهز الشيخ ذقنه ولمعت عيناه لمعة مخيفة ، ثم نظر إلى الحلقة كأنما يريد أن يستأنف درسه ، وأغفل أن يرد علىّ بلفظ واحد له معنى .

فغاظنى ذلك أشد الغيظ ، وصحت به :

— لا بأس على هذه الحلقة إذا تعطلت بالثياب عنها لحظات ترد أمانتى إلىّ ، وسأقوم أنا بهز ذقنى لهؤلاء بدلا منك حتى تعود ، فلا تفوتهم منك فائدة .

ولست أدرى ما الذى أغضب الناس من فوقى هذا ، وقد كنت أحسب أنهم يشكروننى عليه ، أو يتهامسون على الأقل معجبين بسبقى . ولكن هذا هو ما حدث : لقد قاموا جميعاً قومة رجل واحد فى وجهى يشتموننى ويسفهون رأيى ، ويصيحون بى :

— أفى مثل هذه الحلقة تلقى مساخرك ؟! أإلى المسجد تسوق سخافاتك ؟! أليس لمجالس العلم عندك كرامة ؟!

ثم قالوا إلى آخر الأمر :

— احفظ عليك حياءك يا شيخ واخرج من هنا قبل أن تؤذيك : فليس بنا من حقد عليك ، ولا كراهية لك ؛ ولكن عينك لا يجلو هاهنا !

فلم أجد بداً من الخروج . ونظرت إلى الشيخ شاكياً ، فانصرفت وتركته لا يزال يهز كتفه لى ولهم .

ومن عجائب الاتفاق أنى ما كنت أعود إلى بيتى وأستقر فى مجلسى وأستعيد صورة ما مر بى ، حتى سمعت طارقاً على الباب .

يا حفيظ يا رب ! ترى من يكون ؟ وماذا يحمل لى دقة هذا الباب من جديد ؟ فتحت وقلبى يدق دقتين لكل دقة على الباب ، حتى فتحت المصراعين وأخرجت رأسى من بينهما ، فإذا بى أرى جارى الحاج كمال الدين .

الحاج كمال الدين ! وماذا يريد منى هذا الجار بعد كل ما كان منه ؟ إنى لا أزال أذكر آخر عهدى به يوم جاء يطلب منى « البطل الصامت » ليحمل له بعض (التبن) من غيطه ، فسمحت له به حياء من رده خائباً ؛ ثم اتفق أن مررت بداره عند غروب الشمس ، فرأيت منظراً يذيب القلوب حسرة إذا كانت من طبعها أن تذوب ، فقد رأيت « البطل الصامت » المسكين واقفاً عند الباب ، وعليه حمل من (التبن) يبلغ علوه قامتين ، وقد تربعت من فوقه امرأة جارى الشيخ كمال الدين فى كل زينتها ، ويكاد رأسها يبلغ نافذة السور الأعلى من الدار ، والشيخ من وراء « البطل الصامت » يدفعه ويضربه ضرباً قاسياً ، ويقول له :

— حاء ! حاء ! يا حمار الكلب ! حاء ! لعن الله صاحبك .

وأما « البطل الصامت » المسكين ، فكان يحاول جهده أن يدخل من الباب ، ولكن علو الحمل كان يمنعه ، لأن أعلى الباب كان واقفاً دونه لا يتزحزح . ولكم حاول « البطل المسكين » أن يطأطئ بحمله إلى أسفل ليستطيع الدخول ، فترنح ومد يديه وأخر رجليه وقوس ظهره ، ولكن ذلك كله لم يجده شيئاً ، فوقف يائساً ، وجعل يهز رأسه مقراً بالعجز ؛ ولكن جارى القاسى لم يلتفت إلى إشارته ، وما زال يضربه ويشتمه ، ويلعن صاحبه .

فوقع هذا المنظر فى نفسى أسوأ موقع ، فهذا هو « البطل الصامت » يسمى حماراً ، ويقال له ذلك فى وجهه صراحة ، ثم هو يضرب ولا يلتمس له عذر فى عجزه ؛ ثم هذا أنا صاحبه ألعن وأشتم ، فلا حول ولا قوة إلا بالله .

فقربت من جارى غاضباً ، وما هى إلا لحظات حتى كانت بيننا [illegible] انتهت بأن غضب الحاج كمال الدين ، وأمر امرأته أن تنزل من عرشها ، فنزلت وهى تدمدم [illegible] شيئاً من « البطل الصامت » ، [illegible] ؛ فأعطيته وسرت إلى جانبه [illegible] على ظهره وأمسح على رأسه وآخذه لكى أسرى عنه ، حتى بلغت الدار ، وقضيت سائر يومى أصلح من أمره وأسترضيه وأضاحكه ، حتى عاد إلى نفسه وطيبة قلبه ومرحه . بالاختصار ، رأيت ذلك الحاج كمال الدين وراء المصراعين ؛ فلما وقعت عينه على تبسم ابتسامة حلوة وحيا تحية طيبة . ثم لم ينتظر حتى آذن له فى الدخول ، فتقدم وخطا فوق العتبة ودخل إلى المنظرة ، وأنا أسير وراءه . فلما استقر به المجلس جعل يحدثنى عن أحزانه وآلامه ، وما نكبه الزمان به ، حتى لان له قلبى ، ونسيت كل ما كان منه من الإساءة إلى « البطل الصامت » ، وكاد قلبى يذوب رقة له وعطفاً عليه . ثم أخذ يحكى لى قصة بقرته التى كانت منذ حين حاملا ، وكيف أنها ولدت منذ ليلة ، وكان ابنها عجلا مشوهاً ممسوخاً له صورة القردة وذيل الخنازير وحوافر البغال . فأحسست فى قرارة قلبى ألماً ممضاً ؛ وجعلت أفكر فى حياة هذا العجل

التعس ، وما عسى يكون من شأنه في مستقبل أيامه ؟ مع أنه لا ذنب له في أن يأتي به إلى هذه الحياة في تلك الصورة . وزاد بي الألم حتى شعرت بأني أكاد أصعق في مكاني ، فتنبهت إلى نفسي ، وجعلت أزجرها وأعنفها على هذا الضعف ، فما لي أنا ومال الناس ؟ أما كفاني ما قاسيت من تحمل الهموم من أجل جيراني ومن أجل غير جيراني من أهل ماهوش ؟! وذكرت عند ذلك عزيمتي التي كنت قد عزمت عليها منذ حين ! فقد نسيت أن أقول إني بعدما قاسيت من قسوة الناس ونكرانهم الجميل وأنانيتهم وجشعهم ، آثرت ألا أعبأ إلا بنفسي ، وألا أحمل سوى همومي .

فرفعت رأسي متكلفاً الجمود والبرودة ، وقلت لجاري في جفاء :

— ليس لي شأن بكل هذا ، فهل عندك قول آخر ؟ لأني أحب أن أستريح قليلا .

فدهش الحاج كل الدهش وخيل إلي أن [illegible] البارد قد صب فوق رأسه . ولكنه لم [illegible] من جمودي . فلما لم يجد في دهشته وخيبة أمله [illegible] ، قال لي بصوت متلعثم :

— ألا تساعدني أيها الجار العزيز ؟

فقلت له مقرراً :

— إذا كان في طوقي أن أساعدك .

فقال متكلفاً الابتسام :

— لا شك أنك تقدر على مساعدتي . ثم طلب إلي — بالاختصار — أن أعيره (حماري) ليحمل له بعض (التبن) .

يا خبر ! «البطل الصامت» يدعى حماراً مرة أخرى ؟ ويطلب هذا الرجل أن أعيره إياه مرة أخرى ؟ لا ، لا ، هذا كثير !

فقلت وقد ملأ الدم في رأسي :

— سآخذ رأي «البطل الصامت» أولا .

فقال وكأنه لم يفهم :

— «البطل الصامت» ؟ ومن هو ؟ وما دخله في الأمر ؟

فقلت — نعم ! «البطل الصامت» ، وأرجوك بعد اليوم ألا تسميه «البطل الصامت» فتدعوه (حماراً) . هل ترضى أنت أن أدعوك (حماراً) ؟! إني لا أسمح لك بشتمه أمامي . لقد ربى معي ومع أهلي في داري ، ولا أنسى فضله علي ، ولا أسمح لأحد بأن يمس كرامته ما استطعت إلى ذلك سبيلا .

فابتسم الرجل ، وقال معتذرا وفي عينيه لمعة من الخبث :

— تفضل ! خذ رأيه إذا شئت .

ثم يحدثني منظره من عزيمتي ، وقمت إلى «البطل الصامت» فمسحت على رأسه وظهره ، فرفع رأسه نحوي متشمماً ، فألقيت عليه وسألته بصوت مسموع :

— [illegible] أن تحيي هذا الجار الذي تعرفه ؟

ولست أدري إذا كان قد فهم قولي أم لم يفهم ، ولكنه [illegible] كل الدهش ، واستعد لأن ينهق [illegible] السعد ؛ وذهبت إلى جاري فأخبرته أن «البطل الصامت» [illegible] رضي بالذهاب معه .

فقال الجار ، وقد زاد [illegible] لمعاناً في عينيه :

— ألا تسأله عن السبب ؟

فزاد في الغضب ، حتى لم أجد موضعاً للمداراة ولا المجاملة ، فقلت له متجهماً :

— لقد سألته .

فقال لي الحاج :

— وماذا قال ؟ أتراك تفهم لغة الحمير !

ثم أعيا سخريته ، وقلت له :

— لقد قال لي إنه سمع في صباه مثلا حكيماً يجب أن يلزم العمل به دائماً .

فقال الرجل ضاحكاً بصوت عال في غير حشمة :

— وما ذلك المثل ، لا شك أنه مثل حمار حكيم .

فقلت بغير تردد :

— نعم ! مثل حكيم ، « حمار ما هولك ، ظهره

المشاكل الاقتصادية

لما بعد الحرب

حديثنا اليوم هو حديث المستقبل ، والمستقبل حديثه حبيب إلى النفس ، لذيذ على السمع ، وخصوصا إن كان هذا المستقبل محفوفا بسعة الأمل ، ويبشر بغد من حادث سعيد .

إن الذي يظن أن الطفرة ممكنة فهو لا شك واهم ، بل إنه يحن ويركن إلى الخيال يصوره حقيقة واقعة ، ووهم النفس لوجودها عله يسعد بذلك الوهم . وإننا لنسمع الآن صيحات متصاعدة من هنا ومن هناك مدارها شيء واحد ورغبة مشتركة ، وهي الوصول إلى عالم أسعد من عالمنا هذا ، وحياة أرغد من هذه الحياة . ويروج الجهال ويصور للناس أن ما عليهم إلا أن يطلبوا فتأتيهم الرغبات ، وما عليهم إلا أن يصيحوا فيصير ما يريدون . ولكن الحقيقة [illegible] أن نضعها دائما في مخيلتنا هي أن [illegible] فوق محدودة . غير أنه لا [illegible] الصيحات المتعالية في تنبيه الأذهان [illegible] إليه البحث .

وإننا اليوم إذ نتكلم عن اقتصاديات ما بعد الحرب فإنما نعني بذلك حال العالم المادي فيما بين الحرب ، أما الروحيات وما يدور حولها فلن تكون من مدار هذا البحث ، وذلك على الرغم من اعتقادي أن دراسة الاقتصاد يجب أن ترتكز على أساسين : الأول هو دراسة الثروة المادية ، والثاني هو دراسة النفس البشرية .

والآن نبدأ حديثنا بالتكلم عن حقيقة المشاكل التي تواجه الحياة الاقتصادية الحديثة .

قديماً حين كان الإنسان ينتج لنفسه ولنفسه لم يكن الأمر من التعقيد في شيء ، فقد كانت كمية المنتج غالبا تكفي حاجة المنتج ، فإن زادت في قدر فليس له إلا أن يلقط تلك الزيادة ولا يستفيد منها في شيء ، وإن قلت كمية المنتج فعليه أن يقصر القليل ويربط الحجر على معدته ، وإن أقضى الأمر فعليه أن يموت جوعا ، ولم يكن الأمر يعدو ذلك .

ولكن حين بدأ الإنسان ينتج في دائرة أوسع تشمله [illegible] ولكن بدأت بعض المشاكل حوالي [illegible] هل لن ينتج ؟ وكيف يوصل [illegible] تحصل في مقابل ما يعطيه الغير ؟ وما هي الصلة بينه وبين غيره من المستهلكين والمنتجين ؟ وكيف يحفظ حقه في استهلاك ما يحق له استهلاكه ؟ هذه المشاكل وغيرها بدأت تظهر الواحدة تلو الأخرى في المجتمع الحديث ، وكان على المجتمع كي يسير في طريقه دون اضطراب أن يصل إلى الحلول الناجعة لها ؛ فنظر في المشكلة الأولى وهي لمن ينتج الفرد ، وهل من الممكن أن يعرف الصانع الحديث مدى احتياجات المستهلك ؟ وفي بادئ الأمر اعتقد المنتجون أن رغبات المستهلكين ليس لها حد ، فأخذ كل منتج على قدر طاقته ، وكان السوق يستوعب ما ينتج — وفي اعتقادي أن السوق سيظل دائما قابلا لاستيعاب منتجات جديدة . ولكن الأمر الذي يستدعي النظر هو دراسة الفائدة النسبية للمنتجات ، وعلى أي المنتجات أكثر منفعة للمجتمع ؟ هذه هي المشكلة التي تنتج من المشكلة الأولى . وقد تخبط الاقتصاديون كثيراً قبل أن يوفقوا إلى نظرية قريبة من الصحة في هذا الشأن ،

قوي ، يضرب جانبه ويلمس صاحبه » .

فنظر إلىّ الرجل نظرة طويلة ثم صمت ... ثم قام سريعاً وأدار ظهره وخرج من الدار بعد أن يقرأني سلاما .

ولكن ما الذي يهمني من كل ذلك ؟ لقد عزمت منذ حين عزماً أكيداً على ألا أعبأ بهموم الناس ، وألا أنظر إلا في مصلحتي وفي تدبير أمري ، وكفاني ما ذقت من هذا القلق العجيب .

لن أدخر بعد اليوم وسعاً في السعي لنفسي ، والنظر فيما يعود بالخير عليّ وحدي ؛ فلعلي أستطيع أن أقضي من حال ما عرفني إلى أمل الذي ملأ قلبي ، فعلي أقدر على أن أعود بالأمنية العزيزة التي لا تفارق خيالي في صحوي وفي أحلامي : ملية ابنة السلطان !

(الملق الأمل) ميما

وهى نظرية الثمن السوق أى ثمن السلعة فى السوق ؟ ولاستيضاح ذلك نقول : إن هبوط ثمن سلعة ما فى السوق العام يدل على أن حاجة المجتمع لهذه السلعة بدأ يضعف فيقلل المنتجون إنتاجهم من هذا النوع ، وهكذا يستطيع المجتمع أن ينتج أكثر المنتجات منفعة للمجموع . غير أننا بهذه الطريقة يجب أولا أن نصل إلى الكثير من الاضطراب حتى نهتدى بطرقنا إلى الصواب ، وفى هذا مضيعة لا شك فيها لمرافق الإنتاج ، ومجال كبير لحدوث الأزمات .
ولقد فكر بعض الاقتصاديين تلافياً لهذا الأمر إيجاد هيئات خاصة مهمتها تقرير الحاجات المستقبلة للمجتمع ، وتوجيه مصادر الإنتاج إلى إنتاج تلك الحاجات بالنسب المطلوبة ، ولكن كيف تسترشد تلك الهيئات الخاصة عن الحاجات المستقبلة وما سبيلها إلى معرفة النسب الصحيحة ، وأى هذه السلطة التى تستطيع بموجبها أن توجه مصادر الإنتاج ؟ كل تلك الأمور دعت هؤلاء الاقتصاديين إلى نبذ تلك الفكرة مع أن فيها الشىء الكثير من الوجاهة .
ولقد نشأ من تلك المسألة الأولى [illegible] إفراطا فى الإنتاج ، وفى رأيى أن هذه التسمية غير صحيحة ، والأولى أن نسميها أزمات عدم تناسق فى الإنتاج والتوزيع . فالمنتجات على الرغم مما يظنه البعض لم تصل بعد إلى نقطة الإشباع فى الإنسان ، ولسنا نتصور وصولها إلى تلك النقطة . فمن يستطيع أن يقول إن الحاجة إلى زيادة فى الغلال والمواد الخام قد انعدمت ، أو أن الملابس الموجودة فى الأسواق تكفى حاجة الجميع أو — أو الخ .
وقد استكان المجتمع إلى فكرة الثمن فى تقرير النسب ، مع ما سبق بيانه مما ينشأ من ذلك من الاضطراب ، وعلى قادة المجتمع أن يفكروا فى السبيل للقضاء على ذلك الاضطراب .
ثم تأتى المشكلة الثانية وهى كيف يوصل المنتج منتجاته إلى من يحتاجون إليها ؟ وهذه المشكلة يدخل فيها الجانب الدولى وهو الجانب المتقدم من المسألة . لقد نشأت فئة التجار فكانت الوسيط بين المنتج والمستهلك ، وكفت المنتج مئونة البحث عمن يأخذ منتجاته ، وقامت بدلا عنه فى توزيع تلك المنتجات ، وكانت تلك الفئة أيضا تخضع فى نظمها وأرباحها إلى فكرة الثمن السوق ، أى أن ثمن السلعة فى السوق يتحدد دون تدخل تاجر أو وسيط فى أمره . إلا أن الظروف خاصة جعل منها سعة مداركها فئة التجار نتيجة تعاملهم المستمر ، واستطاعتهم تقدير كمية المنتج والحاجات المستقبلة بالتقريب ، أمكنهم أن يتلاعبوا فى الأسواق وفى الأسعار ، وأن يحصلوا من الأرباح ما يزيد على ما يستحقونه لقاء مجهودهم فى التجارة ؛ فنشأت من تلك مشكلة حصول بعض الأفراد على ما لا يستحقونه بصورة تعرض الهيكل الاقتصادى إلى الاضطراب ، وسنعود إلى هذه المشكلة فيما بعد .
أما الجانب الدولى من تلك المشكلة ، فيتلخص فى أن الدول مدفوعة بعوامل الوطنية والأنانية الجامحة ، قد وضعت من النظم ما يعرقل سير المنتجات العالمية بالصورة الاقتصادية الصحيحة ، ففرضت الرسوم الجمركية ، ووضعت الحواجز [illegible] ، وما إلى ذلك مما أدى ببعض المنتجات إلى البوار ، وأدى فى ذاته إلى الخطأ فى توزيع مرافق الإنتاج ، [illegible] واضحة فى البلاد التى تتبع نظام الاستقلال الاقتصادى ، ولا داعى لضرب الأمثلة فى هذا الباب .
ثم تأتى المشكلة الثالثة ، وهى المشكلة الاجتماعية والاقتصادية فى وقت واحد ، ولعلها أقرب الشاكل إلى الأذهان نتيجة صلتها المباشرة بمالية الشعوب والأفراد ؛ ألا وهى مشكلة الأجر ، أو بعبارة أخرى ماذا يحصل المنتج فى مقابل ما يعطيه الغير ؟ وكيف يوفى المجتمع كل إنسان حقه ؟ وهل يكون توزيع الثروة المادية بنسبة المجهود الإنتاجى أم بنسبة الحاجات البشرية ؟ وما هو الرابط لتقدير المجهود أو الحاجة ؟ كل تلك الأمور هى من صلب بحث الاقتصاديين الذين يفكرون فى الاقتصاد المستقبل ، وعلينا نحن أن نستبينها وأن نفحصها بقدر ما تسمح معلوماتنا ومداركنا .
وأما ماهية الصلة بين المنتج وأخيه المنتج أو المنتج والمستهلك ، ثم كيف يحتفظ المنتج بحقه فى استهلاك ما يحق له استهلاكه ؟ فتلك مشكلة تتلخص فى كلمتين :

مسألة النقد .

إن كل الأشياء سواء أكانت مادية أو نظرية لا بد لها من مقياس يقربها من الأذهان ، ويجعل لها أساساً تعرف به ، وبقدر ثبات المقياس يكون ثبات الشيء نفسه . إن مشكلة النقد ما زالت مشكلة المشاكل ، والحلقة المفقودة التي يقف عندها المفكرون ! فمهما توصلنا إلى حل المشاكل التي سردناها الآن ، بل مهما توصلنا إلى تقرير النظام الاقتصادي الصحيح ، فكيف بنا أن نضعه في حيز التنفيذ إذا لم نوفق إلى القياس الثابت القويم ؟ وكيف بنا نقرر لكل فرد حقه إذا لم نكن نعرف مقدار هذا الحق مبيناً بصورة واضحة ؟ فعلى العالم وعلى من يمثلون الطبقة المفكرة من الأمم أن يبحثوا عن وسيلة لتثبيت النقد بصورة تمنع الاضطرابات والاختلالات في النظام الاقتصادي .

تلك عجالة سردنا فيها المشاكل — أو بعض المشاكل بتعبير أدق — التي واجهت المفكرين الاقتصاديين في العالم مجتمعاً وفي الأمم منفردة . ولعمري [illegible] القرن ؟ وما أصعب العلاج وأقسى [illegible] المشاكل عن أنظار الاقتصاديين ، بل إنهم قد حاولوا علاجها فنجحت بعض المحاولات وخابت البعض . أما كيف أقيمت تلك المحاولات وما نصيبها من الحياة ، فهو ما نسرده فيما يلي .

قلنا إن المنتج لم يكن يعرف الرابط لإنتاجه ، والحدود التي يجب أن يقف عندها هذا الإنتاج ، ولكنه اهتدى بشعور من نفسه أنه إنما ينتج ليربح ، فطالما أن هناك مجالاً للربح وطاقة في قواه الإنتاجية ، فإنه ينتج ويوالي الإنتاج ؛ ومن هنا بدأت نظرية المنفعة المتزايدة والمنفعة المتناقصة (١) . وعلى أساس تلك النظرية أخذ المنتجون ينظمون إنتاجهم . إذاً فليست الرغبة في إفادة المجتمع هي التي توجه المنتجين ! إلا أنه يمكننا أن نتبين أن نظرية الربح أو الفائدة الخاصة إنما تتفق إلى حد كبير مع خير المجتمع ؛ غير أن ارتكاننا إلى هذه النظرية كما سبق أن ذكرنا يكلفنا خسارة نحن في غنى عنها ، وقد يمكننا إذا أحسنا التوجيه تلافي شيء منها ، ويكون ذلك بعمل إحصاءات دولية دقيقة بقدر الإمكان بحاجات أفراد البشرية من مختلف أنواع السلع ، مبتدئة بالسلع الضرورية للشعوب جميعها ، ثم السلع نصف الضرورية ، ثم الكمالية وهكذا ؛ ثم تعمل إحصاءات أخرى مبينة أصلح المناطق لإنتاج أصلح الأنواع ؛ وتنشر هذه الإحصاءات بصورة واضحة وعامة تساعد المنتج على أن ينتج حيث يجب عليه الإنتاج ، كما تساعده على تقدير نسبة الإنتاج . كما أن على الحكومات أن توجه المنتجين إلى إنتاج ما يصلحون لإنتاجه ، وفي الجهات الصالحة لهذا الإنتاج . وإلى أن يستطيع العالم أن يجد لنفسه نظاماً أصلح من نظام الثمن في تقرير نسب الإنتاج وطرقه ، فليس لنا من سبيل إلا أن نخضع لحكم الظروف ، وأن نعمل ما وسعنا العمل للتخفيف من أثر [illegible] هذا النظام . صحيح أن بعض الدول قد [illegible] تنظيم الإنتاج ونسبه سياسة [illegible] السوق ، مثل روسيا الشيوعية ، فقد وضعت الإنتاج وتحديد نسبه تحت سلطة الهيئة التنفيذية ، وبذا تخلصت من الاضطراب في الإنتاج والتوزيع إلى حد ما ؛ غير أن لهذا النظام من العيوب ومن الظروف ما يجعلنا ننبذه جانباً مما لا يترك لنا إلا أن نحسن النظم القائمة وندخل عليها ما يوافق العصر من روح التجديد .

تكلمنا ، ولا أقول انتهينا ، من كيفية الإنتاج ، فعلينا أن نتساءل الآن : أما وقد أنتجنا فكيف نوصل منتجاتنا إلى من أنتجت لهم ؟ لقد تكتلت فئة التجار والمنظمون ليتولوا هم عن المنتجين تلك المهمة ، فنشأت معهم مشكلة الرأسمالية ؛ ذلك أن التاجر أو المنظم بما له من دراية واسعة يستطيع أن يحصل على ربح يزيد كثيراً على أجرة المجهود ، ولا يقف الأمر عند هذا الحد ، بل إن تراكم هذا الربح عند التاجر أو المنظم يضع تحت يده قوة شرائية كبيرة لا يستهلكها كلها ، بل يحول النسبة

(١) المنفعة المتزايدة : هي زيادة رغبة المنتج عن المجهود والتكاليف المبذولة في إنتاجه .

العظمى منها إلى قوى إنتاجية . وينشأ من إساءة توزيع القوى الشرائية ، وتحويل نسبة أكبر مما يجب إلى القوى الإنتاجية ، ينشأ من ذلك كساد في استهلاك السلع الاستهلاكية ، فيحدث هبوط في الأسعار تصحبه اضطرابات في النظام الاقتصادي يعزوه البعض بأزمات إفراط في الإنتاج ، ومبناه نحن فيما سبق عدم تناسق في الإنتاج والتوزيع .

وقد عمدت الهيئات المشرفة ، تلافياً لهذا الوضع الشاذ ، على فرض الضرائب المباشرة وغير المباشرة ، كي تأخذ من جانب وتعطي الجانب الآخر ، فتكفل التوازن المنشود . وعلى الرغم مما يشعر به دافع الضرائب من الألم ، وعلى الرغم مما يتصوره الكثيرون من عدم عدالة نظام الضرائب ، فقد أثبت هذا النظام أنه خير حل لمشكلة عدم التوازن في توزيع القوى الشرائية . فهو أيضاً على الحكومات أن تضع نصب أعينها حتى تلجأ إلى فرض الضرائب مسألة هي في غاية الأهمية ، وهي أن [illegible] في قوى الإنتاج ؛ فقد توصلنا إلى [illegible] الربح الذي يفوق المجهود ، فطالما أن الضرائب لا تتعدى هذا الحد فلا خوف على نظام الإنتاج .

فإذا وصلنا إلى التبادل التجاري الدولي ، فقد اصطدمنا بصخرة عاتية ؛ فالدولة مدفوعة بعوامل الوطنية والاستقلال السياسي والاقتصادي ، تريد أن تظهر بمظهر المكتفي بنفسه الراضي من كفاية نفسه بنفسه ، فيلجأ المتحمسون إلى استغلال المرافق الضعيفة التي لا تتناسب مع المجهود المبذول ؛ ولكي توجد السوق لهذه المنتجات الكثيرة النفقات تلجأ الدولة إلى سياسة السوق المقفل ، فتضع الموانع من رسوم جمركية ، إلى قوانين منع — الخ . ولعل الأمثلة قريبة إلى الأذهان بصورة لا تدعو إلى شرح أو تطويل ؛ وليس ثمة شك في أن هذه السياسة تؤدي إلى خسارة في عوامل الإنتاج ليس لها ما يبررها .

ولعله يحسن بنا أن نبين العلة الأصلية لهذه الظاهرة . لقد شعرت بعض الدول منذ الثورة الصناعية حوالي منتصف القرن السابع عشر ، أن هناك دولاً قد أتخمها الغنى وملأها الثراء العريض دون أي حساب ، اللهم إلا ما حدث بلسم قد أتى بزائن الثروة صدفة ، إذ بدأ هناك الانقلاب الصناعي ، فكانت بداية حسنة . ونتيجة لهذا السبق في العمل حصلت تلك البلاد على مزايا إنتاجية مكنتها من الإنتاج بنفقات أقل من غيرها ؛ فلم تجد البلاد الأخرى بداً من وضع العراقيل في وجه تلك المنتجات ، حتى تفسح المجال وتوفر الفرصة لمنتجاتها الأهلية التي تنشأ في ظروف أقل ملاءمة من غيرها من المنتجات ، وإن كانت تستوفي الشروط الاقتصادية المناسبة للإنتاج ، فكانت النتيجة المباشرة أن قابلتها الدول الأخرى بإجراءات انتقامية مقابلة دون النظر إلى ظروف القرارات الأولى .

وقد كانت سياسة الدول لمعالجة تلك الحالة هي سياسة الاتفاقات الاقتصادية والتسلط الدولي والاستعمار . وقد أثبتت تلك السياسات فشلها وعدم صلاحيتها ما لم تكن على نطاق دولي وبشكل داخل المجموع ؛ ولكن أنى للعالم [illegible] تحقيق العدالة الدولية ؟ وكيف للنفوس البشرية [illegible] أن تتحد في إرادتها . لقد ظهرت [illegible] شك كوضع حكم عليه بالموت ذلك لأن القانون لا يستمد هيبته إلا من قوة منفذة ، ولأن العدل له مقاييس عند مختلف الأفراد وعند مختلف الشعوب . غير أن التجربة الفاشلة في عرف الرجال إنما هي تمهيد لتجربة ناجحة ؛ وإنا لنسمع اليوم من كل جهة أحاديث كلها آمال وأماني تدور حول نظم المستقبل ؛ فسمعنا مثلاً عن مشروع نظام أوربا الجديد وما قابله من جهة الحلفاء مشروع حكومة الأمم المتحدة لما بعد الحرب ، وإن كانت هذه الفكرة لم تتضح بعد ؛ ثم ما كان من تقديم مقترحات لتنظيم وتثبيت النقد الدولي ، فقدم اللورد كينز (المشروع البريطاني) مشروعاً دعا فيه إلى إنشاء غرفة مقاصة عالمية ، كما اقترح وحدة النقد (النقد الدولي) الدولية وأسماها بنكور Bankor ؛ كما قدم المستر مرجنثو (المشروع الأمريكي) بتكوين بنك عالمي تشترك فيه كل دولة بنسبة ثروتها الإنتاجية الحقيقية ، ويتمثل ذلك في نقدها الصادر الناشئ الحالة الاقتصادية ، على ألا تزيد نسبة إحدى الدول عن ٢٥٪

نماذج بشرية :

راستنياك RASTIGNAC

إوجين دى راستنياك ، شخصية روائية ضخمة من شخصيات هونوريه دى بلزاك (١٧٩٩ — ١٨٥٠) ، الكاتب الفرنسي الشهير ؛ وأكبر الظن أن اسمه معروف لدى الكثير من القراء ، وذلك لأن بلزاك قد تحدث عنه في عدد كبير من رواياته ، حتى لتحسبه قد بلغ من ساعة الذكر ما بلغه كبار رجال التاريخ . فقد ملأ راستنياك « الكوميديا البشرية »[1] بوجوده الصاخب ، بل لقد أخذ منها ليجوب الحياة ، وهو لا شك حي بيننا ، يجده كل من يمعن النظر فيمن يحوطنا من رجال .

ونحن لن نقص تاريخ حياة راستنياك منذ البدء إلى النهاية ، فذلك ما لا تتسع له مجلة . وبلزاك نفسه لم يجمع تلك الحياة ، ولا تتبعها تتبعاً تاريخياً ، وهو القائل في مقدمة روايته « إحدى بنات حواء » في صدد الحديث عن راستنياك : إنه كثيراً ما يحدث « أن نعرف وسط حياة شخص قبل أن نعرف بدأها ، وبدأها بعد خاتمتها ، وتاريخ الوفاة قبل تاريخ الميلاد » . ولقد أدرك المؤلف نفسه ما سيجده النقاد من مشقة عندما يحاولون استقصاء أخبار إحدى شخصياته الكثيرة التي يسايرها من رواية إلى أخرى ، فتصور مازحاً أن يتولى أحد الباحثين وضع « معجم للشخصيات » يلخص فيه حياة كل شخصية ، مشيراً إلى مظان تلك الحياة من « الكوميديا البشرية » ، وهذا ما كان فعلاً ؛ فقد كتب الأستاذان أناتول سرفبير وجيل كرستوف « فهرساً تحليلياً للكوميديا البشرية »[2] وباستطاعة القارئ الباحث أن يعود إلى هذا الفهرس ليجد كل ما يريد معرفته عن راستنياك منذ ميلاده إلى [illegible] . ونرى من كبار الآراء [illegible] أن نعود إلى مقدمة « إحدى بنات

(١) من المعلوم أن هونوريه دى بلزاك قد جمع رواياته في آخر حياته تحت عنوان واحد هو « الكوميديا البشرية » [illegible] وقسمها إلى مجموعات هي : ١ — [illegible] ٢ — مناظر من حياة الأقاليم . ٣ — [illegible] ٤ — مناظر من الحياة الباريسية . ٥ — [illegible] ٦ — مناظر من حياة الريف . ٧ — ثم أضاف إليها [illegible] ٨ — دراسات فلسفية . ٩ — دراسات تحليلية .

(٢) Répertoire de la comédie humaine de H. de Balzac par H. Cerfberr et J. Christophe.

من الرصيد العام ، وأن يكون لهذا البنك الإشراف التام على حالة العالم المالية والاقتصادية . كل ذلك جميل ، بل لعل تلك المشروعات تحمل في أساسها شيئاً جديراً بالبحث والتقرير . ولكن قبل أن نندفع مع تيار المتحمسين علينا أولاً أن نراجع الفكر ونسائل المقترحين ، كيف يمكن لأي بنك دولي يشرف على كل الدول ؟ وأن يملى إرادته عليها أو على الأقل يوحى بالرهبة إلى كل من تحدثه نفسه بالخروج عليه ؟ إننا مع اقتناعنا بوجاهة النظم المقترحة وصلاحيتها لأن تكون أساساً للبحث ، ما زلنا نعتقد بأن كل المقترحات التي تبعد عن الأساس إنما هي مسكنات وقتية لا تلبث طويلاً ، ثم يأتي رد الفعل أقسى مما كانت عليه الحال أولاً . فالسبيل العملي الوحيد هو إنشاء إدارة دولية واحدة تشرف بالقوة النافذة على مصالح العالم الاقتصادي والمالي ، وحينئذ تصبح المشاكل الفرعية كمشكلة الأجور والإنتاج والنقد وما إليها مشكلات سهلة الحل ممكنة التسوية . ولكن السبيل إلى تقرير إدارة دولية عادلة سبيل صعب شائك ؛ فكيف توافق الدول الغنية على التنازل عن غناها بمحض إرادتها ، وخصوصاً أن لها من القوة والنفوذ ما يستحيل معه إنشاء إدارة دولية دون موافقتها ودون اشتراكها فيها . إن هذه المسألة لتجلب اليأس إلى قلوب الكثيرين ؛ ولكن نظرة عميقة إلى الروح الإنسانية المتغلبة في هذا العصر واقتراب الدول والبقاع نتيجة سهولة المواصلات ، يؤدى بنا إلى شيء من التفاؤل المتحفظ ؛ فأمامنا المثل واضحاً على قبول المجتمع المهذب لفكرة مصلحة المجموع وتضحية البعض في سبيل الغير في نظام الضرائب ، فمع أن الضرائب تأخذ من جانب لتعطى الجانب الآخر ، فقد أصبحت في الدول المتمدينة أمراً عادياً لدى جميع من تقع عليهم ، وخصوصاً إذا تقادم عليها العهد .

محمد حسن بن بريك

حواء» التي أشرنا إليها فيما سبق ، تجرى بلزاك نفسه يلخص لنا جانباً كبيراً من حياة بطلنا . فهو يحدثنا أنه قد ولد سنة ١٧٩٩ في راستنياك بمقاطعة شارانت ؛ وأنه ابن البارون والبارونة دى راستنياك ، وأنه قد أتى إلى باريس سنة ١٨١٩ ليدرس القانون بالجامعة ، وسكن في بنسيون مدام فوكير (Vauquer) ، حيث تعرف بجاك كولان (Jacques Collin) ، المشهور باسم فوترات (Vautrin) ؛ كما تعرف بهوراس بيانشو H. Bianchon ، طالب الطب الذي سيصبح فيما بعد طبيباً عظيماً ؛ وأنه قد أحب مدام دى نوسنجان (Mme de Nucingen) ، بعد أن تخلى عنها عشيقها الأول دى مارسيه (De Marsay).

وكانت مدام دى نوسنجان هذه ابنة لرجل يسمى «جوريو» يسكن مع راستنياك في نفس البنسيون ؛ وكان السيد جوريو المذكور فيما مضى تاجر مكرونة ، وقد جمع ثروة طائلة من تجارته ، ولكنه أنفق كل [illegible] ابنتيه «[illegible]» حتى زوجها ، [illegible] أرستقراطية الدم ، والأخرى بصاحب [illegible] المال ، وهي مدام دى نوسنجان [illegible] أنه لم يعد يملك شيئاً ، وأنه لا [illegible] يصيبهما منه غير العار ، أهملاه ، بل وتحاشيا لقاءه حتى مات الرجل ميتة مخزية في البنسيون ؛ وتولى راستنياك وبيانشو الطالبان دفنه ونفقات ذلك الدفن .

هذه المعلومات يستطيع القارئ أن يجدها في رواية «الأب جوريو» ، وهي الرواية التي سنتخذها مرجعنا الأساسي في تحليل المرحلة التي نريد أن نقف عندها اليوم من حياة راستنياك ، أعنى مرحلة الانتقال من الحياة الريفية البسيطة الخلق السليمة الباطن ، إلى حياة المدن التي يسكت فيها صوت الضمير وتستيقظ شهوات النفس مندفعة إلى أهدافها دون أن يردها شيء ؛ ومنذ أن اجتاز راستنياك تلك المرحلة الثالثة لم تعد حياته غير حياة رجل مغامر ، حياة مستقلة الأحداث . ومن السهل على القارئ أن يعود إلى رواية «بيت نوسنجان» ليعرف كيف أصبح راستنياك من كبار الأغنياء سنة ١٨٣٦ ، وقد تزوج في سنة ١٨٣٨ بأوجستا بنت مدام دى نوسنجان عشيقته القديمة التي تركها منذ خمس سنوات . وفي سنة ١٨٣٩ أصبح وزيراً للأشغال العمومية . وأما بقية مغامراته فمنثورة في عدة روايات ، وكلها في ابتذال ما ذكرنا من تزلف وتمول ووساطة اجتماعية ، دفع ثمنها راستنياك غالياً من مبادئ الخلق وكرامة الإنسان .

راستنياك الذي يستوقف الباحث ، هو راستنياك الطالب ، كما نجده في رواية «الأب جوريو» ، فهنا تقع الأحداث المثيرة ، ومأساة الصراع في نفس البطل بين نشأته الأولى الشريفة ، وبين مغريات الحياة الباريسية ووسائل تلك الحياة المعيبة . والشرك الذي نصبه بلزاك مهمة تقدمه للقارئ بعد السنة الأولى من دراسته بالجامعة ، وقد أصبحت أعين الطالب [illegible] الطموح [illegible] في نفسه ، وكان يحقق [illegible] راستنياك أن يدين بشيء لغير [illegible] كان من نوعى أهل الجنوب ، [illegible] مرحلة التنقل حتى يضرب في [illegible] الشبان عند ما يحدون [illegible] دون أن يعرفوا إلى أي جهة [illegible] صوب ، يصبون [illegible] ؛ ولهذا كان قد أراد في أول الأمر أن يتفرغ بنفسه إلى العمل ، ولكنه لم يلبث أن أغرته ضرورة التعرف بذوي المكانة ، فلاحظ ما للنساء من نفوذ خطير في الحياة الاجتماعية ، وسرعان ما عن له أن ينطلق إلى الوسط الراقي ليجد فيه حماة من النساء ، وهو واثق من أنه لن يعدم العثور على ما يريد ؛ وكيف لا يعثر بين شاب مثله على النساء ، وقد اجتمع فيه إلى الحرارة والذكاء ما زادهما قيمة من رشاقة سمت ، وجمال شخص كم يحلو للنساء أن يقعن في شراكه ! ولقد هاجت تلك الأفكار هذا وسط العقول ، إذ هو يترجح في مرح مع أشواقه الآلاف وحدته قد تغير تغيراً واضحاً . وكانت خالته «مدام دى مارسياك» De Marcillac قد عرفت فيما مضى كبار الأرستقراطية ، إذ كانت يوماً ما من بين من يترددن على البلاط . ولهذا لمح هذا الطموح عدة معارف يستطيع أن يصل إليها ،

وهى لا تقل أهمية عن معارفه فى كلية الحقوق ؛ ولقد كان فى الذكريات التى رددته بها خالته ما يلهب خياله ، فسألها عن روابط القرابة التى يستطيع أن يعود فيصلها . وبعد أن استعرضنا شجرة النسب كاملة استقر رأى السيدة العجوز على أن الفيكونتس « دى بوسيان » "De Beauseant" ستكون من بين أقربهم الأغنياء الأثرين أقلهم التماساً فى خدمة ابن أختها . وملأ كتبت خطابا إلى هذه الفيكونتس الشابة ، كتبته بالأسلوب القديم ، وأعطته لأوجين قائلة إنه لو نجح مع الفيكونتس فإنها ستعطيه بقية أقربه . وبعد أيام قليلة من عودة راستنياك إلى باريس ، أرسل خطاب خالته إلى مدام دى بوسيان ؛ وأجابت الفيكونتس بدعوته إلى حفلة راقصة فى اليوم التالى . وكان راستنياك شاباً حاد الذكاء ، ملماً بذكائه . وقد أدرك أن أساس النجاح هو قوة الإرادة ، وهو يحس فى نفسه تلك القوة ، وظل [illegible] أنه لن يستطيع الرضا بالحول القليل ، وهيهات له أن يقنع بما يعده له أهله من [illegible] جيدة والنجاح فى الامتحانات [illegible] مركز [illegible] وكيل نيابة أو قاضى الأرياف [illegible] يطمح إلى أن يخرج من بين الصفوف فتشرق شخصيته وتحقق ملكاته ؛ كان يريد أن يعيش فى باريس وسط الأرستقراطية ؛ كان يريد الوصول .

وأول ما اتجه إليه عزمه هو المال ، فقد كان يعلم أنه لا بد منه لكى يستطيع الظهور بين النبلاء ، فيلبس كما يلبسون ، ويقوده العربات كما يقودهم ؛ وبالجملة كان حريصاً على أن يظهر فى مظهر الأغنياء الذين لا يعدون ما ينفقون . وكان يعلم بؤس أمه وأخواته ، وما يتكبدن فى سبيله من تضحيات يقدمنها راضيات لأوجين الذى ذكرت فيه آمال الأسرة لما ينتظر من دراسته بالنجاح . ولكنه رغم علمه بضيقهن المادى ، لا يتردد فى أن يطلب إليهن المال ليستطيع الاستعداد للذهاب إلى حفلة « الفيكونتس » ؛ ولقد أرسلن إليه ألفا وخمسمائة فرنك مع توصياتهن الحارة ، فترجمت التوصيات من عليه بعض الدموع . ولكن الألف والخمسمائة فرنك بعثت أوداجه وملأته إحساساً بالانتصار ؛ وسرعان ما استدعى الترزى واتفق معه على ما يريد من ملابس يجمع ثمنها أقساطاً منتظمة بقسط كبير . عندئذ لم يعد هذا الغلام يحس بشىء مما حوله ، وقد نزل من حجرته إلى مائدة البنسيون فى تلك الهيئة الغريبة التى تخلعها النقود على الشبان . ومن المعلوم أنه ما تكاد النقود تستقر بجيب أحد الطلبة حتى يستشعر جرأة عجيبة ، فهو يسير بأقدام أثبت من أقدامه ، وكأنه قد وضع يده على رافعة الأثقال ، وتصبح نظراته مثبتة مباشرة ، وحركاته خفيفة . لقد كان بالأمس حيياً متواضعاً قد يضرب فلا يحرك ساكناً ، أما اليوم فقد يضرب هو رئيس الوزراء ؛ ثم يتقمصه ظواهر عجيبة ، فهو يريد كل شىء ، وهو يستطيع كل شىء ؛ يريد هذا وذاك دون بينة ولا اختيار ، وهو مرح كريم طليق النفس . وفى كلمة واحدة لقد استرد الطائر المهيض جناحيه القويين . الطالب الذى لا نقود معه يختطف (لحظة) من اللذة ، كالكلب الذى [illegible] (فلتة) [illegible] من كل جانب ، ثم يكسرها [illegible] فى الفم . وأما الشاب الذى [illegible] فإنه يتذوق اللذة ويعرفها ويحلل فيها [illegible] ولا يعود يذكر لكلمة البؤس معنى . باريس كلها ملك له ؛ ذلك هو السن الذى يلمع فيه كل شىء ، ويتقد ، سن القوة المرحة التى لا يعرف أحد كيف يستفيد منه ، لا الرجال ولا النساء ؛ سن الديون والمخاوف المتلاحقة التى تزيد من طعم اللذات . إلا من لم يمش بالضفة اليسرى للسين بين شارع سان جاك وشارع سان بير لا يعرف شيئاً من الحياة البشرية » .

فى هذه الصفحة التى تشع حياة بث المؤلف أفكاره الخاصة فى شخصية راستنياك ؛ فكم حلم بلزاك الذى ولد مع راستنياك فى نفس العام بأن يبهر العالم بمزيج ملابسه وأحصنته ؛ ولقد أعوزه المال دائماً ، ولذلك كان الحسد إياه قشعريرة نفسية ، هى تلك التى ترتعد فى الصفحة الآتية .

وذهب راستنياك إلى الحفلة ، وقد اتخذ له أستاذاً فى فهم الحياة مدام دى بوسيان . ولما كنا فى حاجة إلى تفصيل مبادئ الوصول ، فتلك المسائل تقع تحت

أبصارنا كل يوم ، وهل هي إلا انقطاع بالسمو عن الغير ، ومرأى منه احتقار كل من عداها ، وتحجج على منام متين ، ثم قتل لصوت الضمير في النفس ، وإسكات للشعور التي تصرفنا عن الفتات المرض ، وإعراض عن الرحمة التي تردنا من القسوة ، وهي أخيراً ألا نرى إلا أنفسنا ، وألا نرد شيئاً إلا إلى أنفسنا ، وأن نضحي بالغير في سبيل أنفسنا ، وأن نعز أنفسنا على سواها ، مهما كان في ذلك الإيلام من جروح ؟ وهذه هي السادية التي تلقاها راستنياك عن الفيكونتس . ونحن نجتزئ ببعض ما سمع عندها من دروس صريحة مثل : « إن القلب البشري كالسكر تستطعمه في غرفة واحدة تجد نفسك نقلاً . إن الناس لا يتحررون إلى ظاهر شعورهم كله دفعة واحدة أكثر مما يتحررون إلى لا تملك فيما واحداً » ، وعرفنا : « كلما ازددت زهواً في تقدير ذاتك ازددت تقدماً إلى الأمام ... بغير شفقة تحتك الناس . لا تنظر إلى الرجال والنساء إلا نظرتك إلى خيل البريد التي ... مرحلة ، وبذلك تصل إلى أسمى ما تستطيع أن ...

وعاد راستنياك من الحلقة إلى ... أسمى النظر في أرستقراطية باريس . وفي البنسيون وجد أستاذ الفعل بالكولان المعروف بفوتران : مجرم قديم ، أعيى رجال الأمن أمره ، وقد أفلت من السجن حيث كان مقضياً عليه بالأشغال الشاقة ، ولجأ إلى بنسيون مدام فوكير متنكراً . وقد أمسى راستنياك في خلق الرجل مرآة ، وفي حديثه سلطة أثارته حتى أوشك أن يقاتله في مبارزة ؛ ولكن فوتران أوقفه بحركة آمرة ، وأرغمه على أن يجالسه تحت أحد شجيرات الحديقة المحيطة بالبنسيون ، وهناك وجه إليه تلك الخطبة التي ترتعد لها الفرائص فقال : « تريد أن تعرف من أنا ، ماذا صنعت ، وماذا أعمل ؟ حقاً إنك لأبي مسرف في حب الاستطلاع . آه ! هدوءاً ، هدوءاً أيها الطفل ! ستسمع أكثر من ذلك ، لقد لقيت الحياة ، استمع إلي أولاً ثم رد بعد ذلك . ها هي حياتي السابقة في ثلاث كلمات : من أنا ؟ فوتران . ماذا أعمل ؟ ما يحلو لي . سأوضح لك أنا الوضع الذي أنت فيه ، ولكني فأصل ذلك في تفوق الرجل الذي اختبر أمور الحياة ، فرأى أنه ليس أمامه إلا أحد أمرين : إما الخضوع الأبله ، وإما الثورة ؛ وأنا لا أخضع لشيء . أواضح ما أقول ؟ هل تعلم ما أنت في حاجة إليه لتسير في الحياة كما تريد الآن ؟ إنك في حاجة إلى مليون فرنك تجدها سريعاً ، وإلا فاذلك رأسك الصغير إلى شباك « سان كلو » (السجن) ، لتبحث هناك عن الكائن الأسمى . هذا المليون سأعطيه أنا لك » .

وأمسك فوتران عن الحديث هنيهة ناظراً إلى راستنياك ، ثم استأنف : « ها ها ! إنك تنظر الآن إلى عمك فوتران نظرة أرق من ذي قبل — ها هو موقفك أيها الشاب ، لدينا هنالك أب وأم ، وعمة وأختان « في الثامنة عشرة والسابعة عشرة » ، وأخوان صغيران « في الخامسة عشرة والعاشرة » . هذا عدد الفرقة . العمة تربي البنات ، ... الأختين الأسبق ، والعائلة تأكل من عصيدة ... أكثر مما تأكل من الخبز الأبيض . الأب ... والأم تبيع ثوب الشتاء وآخر ... أمرهما كما يستطيعان ، وأما نحن ... ونحن أقرباء وسيان ، ثم نبعث إليهم على الأقدام ! نريد الثروة وليس لدينا سنتيمات ، ونأكل من « عمك » الأم فوكير ، ولكننا نحب الغداء الفخم في فوبور سان جرمان ! ننام على سرير كالشريحة ، ونريد أن نسكن في فيلا . إني لا ألوم رغباتك ، فليس باستطاعة كل إنسان أيها الطفل العزيز أن يكون طموحاً . لقد أحصيت رغباتك لكي أسألك السؤال الآتي : نحن جياع كالذئاب الضارية وقواطعنا ماضية ، فكيف السبيل إلى ملء القدر . ليس لدينا ما نأكله غير مجموعات القوانين ، وهذه لا لذة فيها ولا فائدة من ورائها ، ولكنه الواجب ، فلنكن ، ثم لنشتغل بالمحاماة لنصبح رؤساء المحكمة جنايات ، فنرسل إلى السجن شياطين المجرمين ، مع أنهم خير منا ، وذلك لكي نثبت للأغنياء أنهم يستطيعون أن ينا موا هادئين . هذا عمل لا بهجة له ! ثم إن الشوط طويل ، فلا بد من التسكع سنتين بباريس ، ننظر فيها إلى النقود دون أن نستطيع مسها مع شدة رغبتنا فيها ، وإنه لأمر

مضى أن نستشعر دائماً الرغبة دون أن نستطيع إشباعها، ولو أننا كنا شاحبين وكنا من طينة الزواحف لما خشينا شيئاً، ولكن دماءنا من دماء الأسود، وفي شهيتنا قابلية لارتكاب مشرين حماقة في اليوم.

هذا أيها الشاب هو مخترق الحياة، ولقد اخترقت، فذهبت عند وصيان من بني عمومتك، ولقد أحسست هناك بالشح كما ذهبت إلى مدام دي رستو De Restaud بنت الأب جوريو، فشممت فيها رائحة المرأة الباريسية؛ ولقد عدت ذلك اليوم وعلى جبينك كلمة قرأتها في وضوح هي: الوصول، الوصول بأي ثمن، فصحت: برافو! هذا هو الفتى الذي يلائمني؛ ولقد شعرت بالحاجة إلى المال، فأين تجده؟ لقد رقت دماء أخواتك فاستنفدت بهن المال وحياة قريبك بطريقة يعلمها الله، وهي في بلاد قد تعود بأي ثروة أكثر مما تعود بقطع النقود؛ ولكنك مع ذلك كالجندي الهارب في الظلام، والآن ماذا تعمل بعد ذلك؟ أتفكر في العمل، والعمل لا يعني [illegible] الشكلة التي تعرض لمحسوب أن [illegible] أنفسهم في موقفك الحالي، وأنت [illegible] عن هذا العبء [illegible] فكر في الجهود التي يجب أن تبذل، وفي [illegible] المركز الذي ستحوزها. لا بد أن تكونوا كالوان بعضكم بعضاً كالعنكبوت التي تجتمع في زهرية واحدة، وذلك لأنه من المستحيل أن يكون هنالك خمسون ألف مركز كبير. أتدري كيف يشق الناس سبيلهم في هذه الدنيا؟ بشقوه بعريق العبقرية، أو بالمهارة في الخسة. يجب أن تسقط في صفوف البشر كقنبلة، أو أن تتسلل بينهما كوباء؛ أما الشرف فلا فائدة فيه. إن الناس يخضعون أمام قوة العبقرية، وهم يكرهونها، ويحاولون النيل منها بأقوال السوء، وذلك لأنها تأخذ دون أن تقتسم، ولكنهم يخضعون إذا ثابرت؛ وفي كلمة واحدة الناس يعبدونها جاثين عندما يعجزون عن جرها في الأوحال. وكذلك الخسة فهي قوة؛ الخسة سلاح الضعفاء الذين يملأون الأرض، وسوف تحس وخزاتها في كل مكان. إذا كنت تريد أن تثرى سريعاً، فمن الواجب أن تملك شيئاً

أو تتظاهر بأنك تملك شيئاً. لكي تثرى يجب أن تقامر بضربات قوية، وإلا أضعت وقتك في اللهو ثم هيهات. وفي المائة مهنة التي تستطيع أن تزاولها ستري الجمهور يسمي الشيء الأشخاص الذين ينجحون بسرعة لصوصاً. استخلص الرأي. هذه هي الحياة، فهي ليست أجمل من «الطبيخ»، ورائحتها رائحته. يجب أن تلوث يديك إذا أردت أن تثرى، ولكن يجب أن تعرف كيف «تنظفها». بعد ذلك في هذا جماع الأخلاق في عصرنا. وإذا كنت أحدثك عن الحياة على هذا النحو، فذلك من حق يحكم أنى أعرفها. وهل تظن أنى أعيبها اليوم؟ أبداً، فقد كانت دائماً كذلك ولن يستطيع الوعاظ تغييرها. الإنسان كائن غير كامل، وهو إلى حد ما منافق، ولهذا يرى الحمق أنه عديم الأخلاق، وأنا لا أتهم الأغنياء [illegible] الفقراء، فالإنسان هو هو في الأعلى وفي الأسفل، وفي الوسط. وفي كل مليون من هذه الحيوانات الرئيسية [illegible] يضعون أنفسهم فوق كل شيء، [illegible] واحد من هؤلاء. أما أنت [illegible] السير في خط مستقيم مرفوع الرأس، ولكنك ستضطر إلى مقاتلة الحسد والنميمة والمهارة، ستقاتل جميع الناس. لقد لاقى نابليون وزيراً للحرب اسمه أوبري Aubry، وقد أوشك هذا الرجل أن يرسله إلى المستعمرات. تحسس موضع قوتك، وانظر هل تستطيع أن تستيقظ كل صباح بإرادة أقوى من إرادتك بالأمس؟ وإذا كانت لي نصيحة أعطيها إياك أيها الشاب، فهي ألا تثبت عند آرائك أكثر من ثباتك عند أقوالك. وعندما يسألك أحد عن رأي يعنيه. والرجل الذي يفتخر بعدم تغيير رأيه مثله مثل من يأخذ نفسه بالسير دائماً في طريق مستقيم. هو أبله يعتقد أنه معصوم من الخطأ، وليست هناك مبادئ، وإنما هناك أحداث. ليست هناك قوانين، وإنما هناك ظروف، والرجل الممتاز هو من يحتضن الأحداث والظروف لكي يسيرها».

(يتبع) — محمد مندور

بعض ما ينقصنا :

الحب ... !!

قد يستغرب القارئ هذا العنوان ، وقد لا يصدق أن الحب مما ينقصنا في هذه الحياة ، ومما يقلل من نشاطنا ، ويقعد بنا عن اللحاق بالأمم الأخرى في ميدان الكفاح البشري ! وغريب حقاً — ونحن نستنفد طاقتنا الحيوية في الحب — أن نكون بعيدين جداً من دنيا هذا الحب ، جاهلين بأثره أو خطره في خلق الحياة والأمم .

ولكن كيف ينقصنا الحب ، وكل فرد فينا يحب ، ويستنفد طاقته الحيوية في الحب ؟ كل فرد فينا يحب . هذه هي الحقيقة ، الحقيقة الواضحة الملموسة ، السيما في منازلنا ومجتمعاتنا ، في مدارسنا وشوارعنا ، في أنديتنا وأماكننا ، في كل شأن من شئون حياتنا ومظهر من مظاهرها ... ثم في مثلنا الأعلى في الحياة ... !

الرجل الحي المثقف ، والمرأة [illegible] كلاهما يسعى إلى هذا الحب ، ويستشعر [illegible] على أنه بدء المرحلة التي تتبلور [illegible] مواهبه ، وتتحدد هدفه ، وتصبح قوة سعيدة عاملة .

الرجل الحي المثقف ، والمرأة الحية المثقفة ، كلاهما يحب على هذا النحو ، وكلاهما يسير في سبيل الحب سيراً طبيعياً ، وكلاهما يفهم الحب على أنه ضرب من التجلي يحبو الله به من يشاء من عباده .

فالرجل الحي المثقف يتخذه علامة على التوفيق ، وعلى أن الله أراد به خيراً لنفسه وغيره ، وعلى أنه أراد أن يبعث فيه إنساناً آخر يدين بالمبادئ الإنسانية السامية ، وينشط للعمل بحرارة وشوق ، ينفض الجديد من الظلال ، ويعمل على إسعاد نفسه ، وكل من يتصل بهم . فهو متفائل ، واثق بالمستقبل ، معتز بالرجولة ، مؤمن بقيمة العمل ، يرى أشواك الحياة على نور الحب وروداً وأزهاراً .

وهو يتخذه حجة على مضاعفة الجد والاجتهاد ، وحافزاً على مواصلة السعي والكفاح ، وعلى النظرة إلى الحياة بمنظار الجد والاختيار ... وأخيراً يتخذه ملاذاً يلجأ إليه في ساعات راحته وخلوته ، وظلاً وارفاً رطباً يأوي إليه كلما أجهده الجولان في صحراء الحياة ... !

كذلك يفهم الرجل الحي المثقف الحب ، فهو يحبه ، ويتفاءل به ، ويفتح ذراعيه لاحتضانه ؟ يجد في جحيمه نعيماً ، وفي حرمانه أسمى مبادئ القناعة والرضا ، وفي تضحياته خير وسيلة للتخلص من الأنانية أو الأثرة المقلوتة . فالحب لا يدخل في حياته إعصاراً جائحاً مخرباً ، وإنما يدخل رفيقاً عطراً كنسائم الربيع !

والمرأة الحية المثقفة كالرجل الحي المثقف تحتفل بمقدم الحب ، وتقيم له في أعماقها فرحاً شعرياً ؟ فهو يفسر لها الدنيا ، ويحسن أمامها الحياة ، ويلقي على نفسها ظلالاً من النور والبهجة ، ويشيع في مآلها طرباً روحياً عميقاً . [illegible] تفهم الحب صورة نارية ، وصبوة ساخرة ، وجموحاً يزري بالتقاليد [illegible] وأقاويل تثيرة العازفين أو [illegible] لا [illegible] لها نصف ما تحبها ! أو بهرجة [illegible] أساليب الغواية والاصطياد ! أو [illegible] هي تفهم الحب صورة أنظف [illegible] تفهمه على أنه إرهاص بإشراق فجر الأمل ، وتبشير بإقبال السعادة والدنو من البيت ... البيت الذي خلقت وأعدت له ، البيت الذي تشعر فيه بالاستقلال ، وتحشد له مواهبها وتجاربها ، ثم تسكن فيه إلى الزوج والأبناء ... البيت الذي يلازمها وتعايشها ، وتعايش أحلامها ، ولا تكاد يفارق تفكيرها ... !

ذلك هو الحب في دنيا المثقفين ، دنيا المحبين الصادقين ، لا دنيا المنافقين الكاذبين !! يفهمونه على هذا الوضع الصحيح ، ويتخذون حتى من آلامه دوافع ترقى فيهم قوة الاحتمال والمقاومة ، وتهذب من غرائزهم الجامحة ، وتقوى من عزائمهم الخائرة ، وتنمى فيهم عناصر الشخصية الممتازة ، ثم تخلق منهم في النهاية قوة إنسانية تخط في سجل الحياة أروع الصفحات !

أما الحب عندنا أو في دنيانا فنكبة ... ! أي والله نكبة مضحكة ! فكل فرد منا لا يهدأ له نوم ، ولا يهدأ

له بال إلا إذا أحب . فإذا أحب كان ذلك نكبة ووبالا عليه ، وكان من لوازم أو بركات ذلك الحب أن يقعده عن كل عمل ، وكل شأن له في الحياة ، وأن يهمل حتى في مستقبله ، ويصبح ولا شيء يعنيه في الدنيا أكثر من أن يسأل الفتاة التي يحبها عن حسن هندامه ، وجمال طلعته ، وتصفيف شعره ، وسحر نظراته ، ورجاحة عقله ، وسخافة أحاديثه ، ومظاهر ترفه وغناه ... !! يجرى الزمن في هذا العصر كما ترى ، والمغنون عندنا لا يزالون مختلفين في حبهم وتصويره ، فهم ما فتئوا يغنون ذلك الحب المبتذل الرخيص ، ويتأوهون أو يسمعون نفوس الشبابات المتطلعة بهذه النفحات الخبيثة من العواطف الرخيصة . تسمع غناءهم فلا تكاد تحس في نفسك طربا أو نشوة ، أو طموحا وتطلعا ، أو توثبا وانطلاقا من مادية الجسم ، وإنما تحس منه بحب مصطنع ، وغثاء يحير النفس ويؤذى الشعور ...

فالحب عندهم غدر وخيانة ، وشكوى وعذاب ... ولوم ومكر ، وهجر وخصام ، وسهر ودموع … ودماء تراق ، وسهام تطيح في … وليس من الحكمة أو الممكن أن … الحب … شيئا غير هذا ، في الوقت الذى تثقفت فيه المرأة المصرية ، وظهرت في المجتمعات ، وخرجت تنافس الرجال في ميادين الأعمال ، وأصبح من السهل مقابلتها ومرافقتها في كل مكان ، دون عذول أو رقيب ؟! ... لو كان المغنون أو من يكتبون لهم هذه الأغانى مثقفين مجيدين حقا ، لحدثونا عن الحب الصحيح ، عن مختلف أحواله وأطواره ، عما يجدون فيه من إخصاب في الروح ، وفسحة في الشعور ، وتفجر في النشاط ، وتفاؤل بالمستقبل ، وتعلق بالحياة بدل أن يطالعونا بالغناء الباكى ، والمعانى المخنثة ، والعواطف المتوثبة ، مما يفضحهم ، ويبين نقصهم في فهم الحب ، ومعنى رسالته ... والشعراء عندنا ... فيم يستنفدون طاقاتهم الشعرية ؟ يستنفدها المجيدون منهم في الحب ولو لم يعرفوه أو يعانوه ! أجل ، يعيشون في جو مشبع من الحب . لا عمل لهم في الحياة أكثر من أن يأكلوا ويحبوا ، وحسب الحياة منهم ذلك . وليتهم يفهمون من الحب ما يفهم الحى المثقف فيفيدوا ويستفيدوا ! وإنما قصاراهم أن يتباكوا ، وأن يسمعونا كل شعر ناضب جامد . وتلك رسالتهم ! والرجل العادى ماذا يدرى من الحب ويعرف عنه ؟ إنه لا يعرف منه إلا الجانب المادى : جانب المتعة الرخيصة . أما الإقبال عليه على أنه جزء مكمل لحياته ، مُحَسِّنٌ لها ، فهذا ما لا يقوى على فهمه أو يقدر عليه !

والمرأة المصرية ماذا تقيس الحب ؟ إنها تقيسه بالأطوال ، تقيسه بمقاييس الجمال والمال والجاه والشهرة ، غير مكترثة بالتجاذب في الحب والانسجام فيه . وهكذا يفهم الحبَّ سائرُ الطبقات ... ! من أجل ذلك كنا فاشلين في الحب ! جاهلين بخطره وأثره . ومن أجل ذلك تتفكك الأواصر التي ينبغي أن تكون بيننا ، لانعدام الحب العام الذى يقوى تلك الأواصر . ومن أجل ذلك يتعطل الخلق في مجتمعنا ، فلا يكاد يؤدى وظيفة أو عملا . ومن أجل ذلك يغلب علينا الجمود وترين الكآبة ، وتسود البطالة ، ويقل النشاط ، وتستحيل حياتنا ضربا من الموت أو الموت ضربا منها ! وسوف نظل هكذا ، حتى تتبدل نظرتنا ، وتستقيم فطرتنا ، ويسمو شعورنا ، ويقوى إيماننا بالحياة ..

… الحب الذى ينفعنا لا يؤخرنا ،
… لا يشقينا ...
… الحب … كل شيء ولا ينتظر أى شيء .
الحب الذى يتعامل مع نقص الحياة فيحدث كمالا ،
ومع أوجاعها وأحزانها فيصنع مسرات وأفراحا ،
ومع شركها وكفرها فينتج وحدانية وإيمانا .
ذلك هو الحب ... الحب الذى ينقصنا في حياة ينقصنا فيها الكثير ... !!

عبد العزيز غنيم

قصة الأدب في العالم

تأليف الأستاذين أحمد أمين بك وزكي نجيب محمود

سررت أن تفوز اللغة العربية بكتاب في هذا الموضوع كان مكانه من مكتبتها خاليا، وظللت أنتظره بشوق منذ قرأت الإعلان عنه في الثقافة الغراء قبل صدوره بأسابيع، فاللغة العربية اليوم حاجة ماسة إلى معالجة هذا الموضوع بشكل واسع النطاق، على نحو ما صنع الأستاذان الجليلان أحمد أمين بك وزكي نجيب محمود.

وكل الأمم الحية، كما ذكرا في مقدمة الكتاب، لم تترك أدبا من الآداب الشرقية والغربية إلا أعلمت قومها به، ونقلت إليهم أقوم آثاره، بالمطولات والمختصرات، والمجموعات والمتفرقات، بينما فرطت اللغة العربية في ذلك كل التفريط. فالنهضة العربية في عصر الدولة العباسية أسست على الترجمة، ولكنها أعرضت عن ترجمة الأدب مما سبب خسارة كبيرة للأدب العربي، وقيد أفقه [illegible] إلا في مجاريه القديمة؛ وقد كان [illegible] الرئيسي للركود الذي أصاب الأدب العربي منذ [illegible] العصر العباسي الأخير إلى عصرنا هذا [illegible] العربية في خلال تلك الفترة الطويلة، التي يدعوها مؤرخو الأدب بالفترة المظلمة، أنواعا أدبية جديدة ظلت بمعزل عنها. وقد تدرك مرارة هذه الحقيقة إذا تذكرنا أننا لم نعرف في أدبنا الملحمة ولا المسرحية ولا الرواية ولا القصة ولا الشعر القصصي من الفنون الأدبية التي عرفتها آداب الأمم الأخرى.

فإذا كنا نريد لأدبنا العربي أن يجاري تطور الزمان، ويلحق بالقافلة التي تأخر عنها كثيراً، فلا بد لنا من دراسة آداب الأمم الأخرى، والاطلاع عليها، والتعرف منها على الأنواع الأدبية المستحدثة، والأساليب الجديدة، والأخيلة والأفكار التي تختلف في كل أدب وعند كل أمة.

وقد كانت الخدمة التي أسداها مؤلفا الكتاب بعد «قصة الفلسفة اليونانية» و«قصة الفلسفة الحديثة» خدمة ممتازة وواسعة غاية النفع، سدت حاجة وملأت فراغا، ولعلها تفوق سابقتيها في صعوبتها واتساع موضوعها وما يقوم دون تحقيقها من عقبات. وهذه نظرة تجلي في موضوعات الكتاب تكون لنا لمحة عن الجهود المشكورة التي أنفقت فيه.

ويختص هذا الجزء الأول من «قصة الأدب في العالم» بالأدب القديم وأدب العصور الوسطى، فيدرس الأدب المصري والأدب الصيني والأدب الهندي والأدب الفارسي القديم والأدب العبري والأدب اليوناني والأدب الروماني والأدب الإنكليزي في العصور الوسطى، والأدب العربي في العصور الوسطى، والأدب الفارسي الإسلامي في العصور الوسطى — ثم يعطي في آخر كل فصل أو في خلاله نماذج مترجمة ترجمة جيدة لكل من هذه الآداب.

ولا ريب في أن هذه العجالة لن تتسع لدراسة الكتاب والتعليق على مسائله أو نقدها تفصيلا، وأرجو أن أوفق إلى ذلك في فرصة أخرى. وهذه ملاحظات [illegible] لي [illegible] أثناء قراءة الكتاب متمتعا برمته الشيق وموضوعه الطريف: ١ — [illegible] في الفصل الخامس من «نشأة الأدب» [illegible] عند الإشارة الصريحة المتكررة إلى أسبقية الشعر [illegible] من بساطتها وبداهتها أخطأت [illegible] الأدب قديمها وحديثها فلفتت النظر [illegible] نظرة [illegible] قد تكون جديدة في الدراسات الأدبية العربية، بالرغم من أهميتها، وهي النظر إلى الأدب كظاهرة اجتماعية تتأثر بالبيئة وبظروفها الاقتصادية والاجتماعية من أوتوقراطية وديمقراطية. ولكن قد يؤخذ على المؤلفين عدم اعتبارهما بهذه النظرة في فصول الكتاب كثيراً عند دراسة الآداب المختلفة [illegible] اختلافا واتساعا ضرورة إيلائها العناية الكبيرة في الدراسات الأدبية الحديثة. ٣ — ما ورد في الصفحة (٨٨) من خطأ في هذا الكلام عن قصة شمشون، إذ جاء أن الشاعر الإنكليزي ملتن قد تناول هذه القصة في إحدى قصائده «كما تناولها كذلك الكاتب الفرنسي — سانت سانس — في رواية تمثيلية غنائية [illegible] في الأدب الحديث» وسان سانس ملحن موسيقي شهير وضع ألحان هذه الرواية — التي كتبها فرديناند لوميير — وليس الكاتب كما جاء في الكتاب سهوا في أغلب الظن. ٤ — ما جاء في فصل الأدب الفارسي

من شاطئ «الجوى» :

من يانبي الهوى ....؟

ورائعة النور طافت حول وجداني
تهمو وتحيي الهوى والسحر من حلق
مرموشة الفجر .. كم تمو السنا خطرت
تهدي إليه تسابيحي .. وألحاني
فردها الصمت أصداء مرنقة
في خاطر الليل ... ترمى بخافق العاني
تهومت والمنى حولي مرنحة ...
تذكي خيال الشجى من دمعها القاني
ترنحت لغيب أشكيها .. تؤرقنا
ونحن في قسوة الأحزان ... [illegible]
فقال عازفها .. والريح ترشفه :
من راح يحكي [illegible]

فقلت والروح في جنبي عاصفة :
من يا نبي الهوى لليتم وكاني ...؟
وفي شغاف الأسى والسهد خلفني
لحنا يئن الصدى في عود أحزاني ؟
ومن بكأس المنى يا رب أرشفني
وفي غدير الجوى والهم ألقاني ؟
ومن بفجر عمري كفنت وتري
وأسلمتني لعين البؤس رماني ؟
خلفتني بأيك الزهر عمرة أطلالها سقيت من قبل طغيان
فقال : يا زورقا في اليم تصرعه
موج الرياح ولم ينجدك رباني
حان كالشيخ الأنضاء المشفق ما تساقطت للأوهام [illegible]
[illegible] الهوى السنا وأصبح يرويه
تستمر دنياك يا محروم بوماني !!
[illegible] والطير من شدوي مولهة
[illegible] شجوها من قبل عيداني
[illegible] بصفقه !!
إلا شجوا لما تذكيه عيداني !!
كأنني آهة في البيد ساخرة
أو فكرة عصفت في رأس شيطان
أو نغمة .. والصدق في الصمت يفضحها
همسا يذيع بوادي اليأس أشجاني
فقال : يا راهب الآمال دع ألما
في النفس يخبو فلن تؤويك شطآني
بالأمس رددته الموج أغنية فراح يحكي صداها الشاطئ الثاني
قصد الشباك فلا ذوبنا شجنا
وهدأت رعشات الموج [illegible]
فعدت من شاطئ الجوى وفي كبدي
نار تذيب بجمر الدمع أجفاني
وقلت يا روحي العذراء مغفرة إني دفنت الهوى في قبر أزماني

محمد عبد الفتاح ابراهيم

الإسلامي في العصور الوسطى ص [illegible] وردت في كتاب «شعر الفلسفة [illegible]» إذ قال : «إن الفلسفة والتصوف في الشعر الفارسي والأردي لا نظير لهما في الشعر العربي» ! فورد في الكتاب تعليق على هذه الملاحظة لم أدر أكتبه الدكتور [illegible] الذي كتب هذا الفصل من الكتاب أم أورده المؤلفان ؛ وهو يقول إن الفلسفة لا تمثل فيها هذه الدعوى . وأنا بالرغم من قراءتي الشعر الفارسي عن طريق ترجماته فقط — لم أجد ما يؤيد هذا التعليل بقوة ؛ وليته كان مبرزا بأمثلة وأدلة توضح القصد منه .

وهذه كما يظهر ملاحظات طفيفة لا تنقص من قدر الكتاب الذي يكفيه نبلا أن تعد معايبه . وإن لعظيم الغبطة أن أقدم إلى قراء الأدب العربي هذا السفر القيم ، وأوصي أخداننا أن يولوا وجوههم هذا المنحى النافع ، وأن أحيي مؤلفيه الجليلين وأهنئهما خالص التهنئة ، مقدرا لهما جهودهما حق التقدير .

(بغداد) محمد فهمي صقرة

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بشارع الكرداسي رقم ٩ عابدين — مصر —